بسم الله الرحمن الرحيم

حقيقة مذهب الاتحاديين - أو وحدة الوجود -

وبيان بطلانه بالبراهين النقلية والعقلية

● رسالة شيخ الإسلام إلى مَن سأله عن حقيقة مذهب الاتحاديين - أى القائلين بوحدة الوجود :

﴿ الحَمْدُ للَّه رَبِّ العَالَمينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحيمِ * مَالكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (١) ، وأشهد أنَّ لا إله إلاَّ اللَّه الأحد الحق المبين ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين ، صلى اللَّه عليه وسلم تسليماً كثيراً ، وعلى سائر إخوانه المرسلين .

أما بعد .. فقد وصل كتابك تلتمس فيه بيان حقيقة مذهب هؤلاء الاتحادية وبيان بطلانه ، وأنك كنت قد سمعت منى بعض البيان لفساد قولهم ، وضاق الوقت بك عن استتمام بقية البيان ، وأعجلك السفر ، حتى رأيتَ عندكم بعض مَن ينصر قولهم ممن ينتسب إلى الطريقة والحقيقة ، وصادف منى كتابك موقعاً ، ووجد محلاً قابلاً ، وقد كتبتُ إليك بما أرجو من اللَّه أن ينفع به المؤمنين ، ويدفع به بأس هؤلاء الملاحدة المنافقين ، الذين يلحدون فى أسماء اللَّه وآياته المخلوقات والمنزّلات فى كتابه المبين ، ويبيِّن الفرق بين ما عليه أهل التحقيق واليقين ، من أهل العلم والمعرفة المهتدين ، وبين ما عليه هؤلاء الزنادقة المتشبهين بالعارفين ، كما تشبَّه بالأنبياء مَن تشبه من المتنبئين ، وكما شبَّهوا بكلام اللَّه ما شبَّهوه به من الشعر المفتعل وأحاديث المفترين ، لتبيين أنَّ هؤلاء من جنس الكفار المنافقين المرتدينَ ، أتباع فرعون والقرامطة الباطنيين (٢) ، وأصحاب مسيلمة والعنسى ونحوهما من المفترين ، وإنَّ أهل العلم والإيمان من الصدِّيقين والشهداء

---

(١) الفاتحة : ١ - ٣

(٢) للتعريف بالقرامطة والباطنية انظر جـ ١ هامش ص ٧٥ ، ٩١ ، ١٧٢ (البلتاجى) .

والصالحين ، سواء أكانوا من المقرَّبين السابقين أو من المقتصدين أصحاب اليمين ، هم من أتباع إبراهيم الخليل وموسى الكليم ، ومحمد المبعوث إلى الناس أجمعين . وقد فرَّق الله فى كتابه المبين الذى جعله حاكماً بين الناس فيما اختلفوا فيه من الحق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والمؤمنين والكافرين ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُواْ السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ ؟ (١) ، وقال : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ ؟ (٢) ، وقال : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ؟ (٣) .

وقد بيَّن حال مَن تشبه بالأنبياء وبأهل العلم والإيمان من أهل الكذب والفجور الملبوس عليهم اللابسين . وأخبر أنَّ لهم تنزلاً ووحياً ولكن من الشياطين ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ (٥) ، وأخبر أنَّ كل مَن ارتد عن دين الله فلا بد أن يأتى الله بدله بمن يقيم دينه المبين ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٦) .

---

(١) الجاثية : ٢١ (٢) سورة ص : ٢٨ (٣) القلم : ٣٥ - ٣٦

(٤) الأنعام : ١٢١ (٥) الشعراء : ٢٢١ - ٢٢٢ (٦) المائدة : ٥٤

• مذهب الاتحاديين حديث مفترى وشعر مفتعل :

وذلك أنَّ مذهب هؤلاء الملاحدة فيما يقولونه من الكلام وينظمونه من الشعر بين حديث مفترى وشعر مفتعل ، وإليهما أشار أبو بكر الصدِّيق رضى الله عنه - لما قال له عمر بن الخطاب فى بعض ما يخاطبه به : يا خليفة رسول الله ، تألَّف الناس . فأخذ بلحيته وقال : يابن الخطاب ، أجباراً فى الجاهلية خواراً فى الإسلام ؟ علام أتألفهم ؟ أعلى حديث مفتَرى ؟ أم شعر مفتعل ؟ يقول : إنى لست أدعوهم إلى حديث مفتَرى كقرآن مسيلمة [١] ، ولا شعر مفتعل كشعر طليحة الأسدى [٢] .

وهذان النوعان هما اللذان يعارض بهما القرآن أهل الفجور والإفك المبين ، قال تعالى : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَالا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ ... إلى آخر الآية [٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴾ الآيات [٤] .... إلى قوله : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ ... [٥] إلى آخر السورة . فذكر فى هذه السورة علامة الكهان الكاذبين ، والشعراء الغاوين ، ونزَّهه عن هذين الصنفين كما فى سورة الحاقة ، وقال تعالى ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى العَرْشِ مَكِينٍ ﴾ [٦] ... إلى آخر السورة . فالرسول هنا جبريل ، وفى الآية الأولى

---

(١) مسيلمة : توفى عام ١٢ هـ ، رجل من بنى حنيفة فى اليمامة ، ادعى النبوَّة ، هزم الجيش الإسلامى بقيادة عكرمة ، وانتصر عليه المسلمون فى معركة عقرباء التى عُرفت بـ « حديقة الموت » (البلتاجى)

(٢) طليحة بن خويلد الأسدى : توفى عام ٢١ هـ ، ادعى النبوَّة فى قومه ومَن يليهم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فوَّجه أبو بكر إليه خالد ابن الوليد فانتصر عليه فى بزاخة وفر طليحة ثم عاد مسلماً . كان ذا بلاء فى فتوح فارس بعهد عمر . (البلتاجى) .

(٣) الحاقة : ٣٨ - ٤٠ (٤) الشعراء : ١٩٢ - ١٩٣

(٥) الشعراء : ٢١٠ (٦) التكوير : ١٩ - ٢٠

محمد ﷺ ، ولهذا نزَّه محمداً هناك أن يكون شاعراً أو كاهناً ، ونزَّه هنا الرسول إليه أن يكون من الشياطين .

* * *

فصل

فى حقيقة مذهب الوحدة التى لا يفهمها أكثر منتحليه

اعلم - هداك اللّه وأرشدك - أنَّ تصور مذهب هؤلاء كاف فى بيان فساده ولا يحتاج مع حسن التصور إلى دليل آخر ، وإنما تقع الشُبهة لأنَّ أكثر الناس لا يفهمون حقيقة قولهم وقصدهم ، لما فيه من الألفاظ المجمَلة والمشتركة ، بل وهم أيضاً لا يفهمون حقيقة ما يقصدونه ويقولونه ، ولهذا يتناقضون كثيراً فى قولهم ، وإنما يتخيلون شيئاً ويقولونه أو يتبعونه ، ولهذا قد افترقوا بينهم على فِرق ، ولا يهتدون إلى التمييز بين فِرقهم ، مع استشعارهم أنهم مفترقون ، ولهذا لما بيَّنتُ لطوائف من أتباعهم ورؤسائهم حقيقة قولهم ، وسر مذهبهم ، صاروا يُعظِّمون ذلك ، ولولا ما أقرنه بذلك من الذم والرد لجعلونى من أئمتهم ، وبذلوا لى من طاعة نفوسهم وأموالهم ما يجل عن الوصف ، كما تبذله النصارى لرؤسائهم ، والإسماعيلية [1] لكبرائهم ، وكما بذل آل فرعون لفرعون .

وكل مَن يقبل قول هؤلاء فهو أحد رجلين ، إما جاهل بحقيقة أمرهم ، وإما ظالم يريد علواً فى الأرض وفساداً ، أو جامع بين الوصفين ، وهذه حال أتباع فرعون الذين قال اللّه فيهم : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ [2] ، وحال القرامطة مع رؤسائهم ، وحال الكفار والمنافقين فى أئمتهم الذين يدعون إلى النار ويوم القيامة لا يُنصرون : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً ﴾ ... إلى آخر الآية [3] وقوله : ﴿ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً ﴾ [4] ، وقال تعالى :

---

(١) للتعريف بالإسماعيليين انظر جـ ١ هامش ص ٧٥ ، ١٧٢ (البلتاجى) .

(٢) الزخرف : ٥٤ (٣) الأحزاب : ٦٤ (٤) الأحزاب : ٦٨

محمد ﷺ ، ولهذا نزَّه محمداً هناك أن يكون شاعراً أو كاهناً ، ونزَّه هنا الرسول إليه أن يكون من الشياطين .

* * *

فصل

فى حقيقة مذهب الوحدة التى لا يفهمها أكثر منتحليه

اعلم - هداك اللّه وأرشدك - أنَّ تصور مذهب هؤلاء كاف فى بيان فساده ولا يحتاج مع حسن التصور إلى دليل آخر ، وإنما تقع الشُبهة لأنَّ أكثر الناس لا يفهمون حقيقة قولهم وقصدهم ، لما فيه من الألفاظ المجمَلة والمشتركة ، بل وهم أيضاً لا يفهمون حقيقة ما يقصدونه ويقولونه ، ولهذا يتناقضون كثيراً فى قولهم ، وإنما يتخيلون شيئاً ويقولونه أو يتبعونه ، ولهذا قد افترقوا بينهم على فِرق ، ولا يهتدون إلى التمييز بين فِرقهم ، مع استشعارهم أنهم مفترقون ، ولهذا لما بيَّنتُ لطوائف من أتباعهم ورؤسائهم حقيقة قولهم ، وسر مذهبهم ، صاروا يُعظِّمون ذلك ، ولولا ما أقرنه بذلك من الذم والرد لجعلونى من أئمتهم ، وبذلوا لى من طاعة نفوسهم وأموالهم ما يجل عن الوصف ، كما تبذله النصارى لرؤسائهم ، والإسماعيلية [1] لكبرائهم ، وكما بذل آل فرعون لفرعون .

وكل مَن يقبل قول هؤلاء فهو أحد رجلين ، إما جاهل بحقيقة أمرهم ، وإما ظالم يريد علواً فى الأرض وفساداً ، أو جامع بين الوصفين ، وهذه حال أتباع فرعون الذين قال اللّه فيهم : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ [2] ، وحال القرامطة مع رؤسائهم ، وحال الكفار والمنافقين فى أئمتهم الذين يدعون إلى النار ويوم القيامة لا يُنصرون : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً ﴾ ... إلى آخر الآية [3] وقوله : ﴿ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً ﴾ [4] ، وقال تعالى :

---

(١) للتعريف بالإسماعيليين انظر جـ ١ هامش ص ٧٥ ، ١٧٢ (البلتاجى) .

(٢) الزخرف : ٥٤ (٣) الأحزاب : ٦٤ (٤) الأحزاب : ٦٨

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً ﴾ ... إلى قوله : ﴿ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ (١) .

* * *

فصل

فى حقيقة قولهم : « إنَّ وجود الكائنات هو عين وجود اللّه »

اعلم أنَّ حقيقة قول هؤلاء : إنَّ وجود الكائنات هو عين وجود اللّه تعالى ليس وجودها غيره ولا شئ سواه ألبتة ، ولهذا مَن سماهم حلولية - أو قال : هم قائلون بالحلول - رأوه محجوباً عن معرفة قولهم خارجاً عن الدخول إلى باطن أمرهم ، لأنَّ مَن قال : إنَّ اللّه يحل فى المخلوقات فقد قال : بأنَّ المحل غير الحال ، وهذا تثنية عندهم وإثبات لموجودين - أحدهما : وجود الحق الحال ، والثانى : وجود المخلوق المحل - وهم لا يقرون بإثبات وجودين ألبتة ، ولا ريب أنَّ هذا القول أقل كفراً من قولهم ، وهو قول كثير من الجهمية (٢) الذين كان السَلَف يردون قولهم ، وهم الذين يزعمون أنَّ اللّه بذاته فى كل مكان . وقد ذكره جماعات من الأئمة والسَلَف عن الجهمية وكفَّروهم به ، بل جعلهم خلق من الأئمة - كابن المبارك ويوسف بن إسباط وطائفة من أهل العلم والحديث من أصحاب أحمد وغيره - خارجين بذلك عن الثنتين والسبعين فرقة . وهو قول بعض متكلمة الجهمية وكثير من متعبديهم . ولا ريب أنَّ إلحاد هؤلاء المتأخرين وتجهمهم وزندقتهم تفريع وتكميل لإلحاد هذه الجهمية الأولى وتجهمها وزندقتها .

وأما وجه تسميتهم « اتحادية » ففيه طريقان - أحدهما : لا يرضونه لأنَّ الاتحاد على وزن الاقتران ، والاقتران يقتضى شيئين اتحد أحدهما بالآخر ، وهم

---

(١) البقرة : ١٦٥ - ١٦٧

(٢) للتعريف بالجهمية انظر جـ ١ هامش ص ١١٧ ، وجـ ٣ هامش ص ١٢ ، ٢٨ (البلتاجى)

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً ﴾ ... إلى قوله : ﴿ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ (١) .

* * *

فصل

فى حقيقة قولهم : « إنَّ وجود الكائنات هو عين وجود اللّه »

اعلم أنَّ حقيقة قول هؤلاء : إنَّ وجود الكائنات هو عين وجود اللّه تعالى ليس وجودها غيره ولا شئ سواه ألبتة ، ولهذا مَن سماهم حلولية - أو قال : هم قائلون بالحلول - رأوه محجوباً عن معرفة قولهم خارجاً عن الدخول إلى باطن أمرهم ، لأنَّ مَن قال : إنَّ اللّه يحل فى المخلوقات فقد قال : بأنَّ المحل غير الحال ، وهذا تثنية عندهم وإثبات لموجودين - أحدهما : وجود الحق الحال ، والثانى : وجود المخلوق المحل - وهم لا يقرون بإثبات وجودين ألبتة ، ولا ريب أنَّ هذا القول أقل كفراً من قولهم ، وهو قول كثير من الجهمية (٢) الذين كان السَلَف يردون قولهم ، وهم الذين يزعمون أنَّ اللّه بذاته فى كل مكان . وقد ذكره جماعات من الأئمة والسَلَف عن الجهمية وكفَّروهم به ، بل جعلهم خلق من الأئمة - كابن المبارك ويوسف بن إسباط وطائفة من أهل العلم والحديث من أصحاب أحمد وغيره - خارجين بذلك عن الثنتين والسبعين فرقة . وهو قول بعض متكلمة الجهمية وكثير من متعبديهم . ولا ريب أنَّ إلحاد هؤلاء المتأخرين وتجهمهم وزندقتهم تفريع وتكميل لإلحاد هذه الجهمية الأولى وتجهمها وزندقتها .

وأما وجه تسميتهم « اتحادية » ففيه طريقان - أحدهما : لا يرضونه لأنَّ الاتحاد على وزن الاقتران ، والاقتران يقتضى شيئين اتحد أحدهما بالآخر ، وهم

---

(١) البقرة : ١٦٥ - ١٦٧

(٢) للتعريف بالجهمية انظر جـ ١ هامش ص ١١٧ ، وجـ ٣ هامش ص ١٢ ، ٢٨ (البلتاجى)

لا يقرون بوجودين أبداً . والطريق الثانى : صحة ذلك بناءً على أنَّ الكثرة صارت وحدة كما سأبيِّنه من اضطرابهم .

وهذه الطريقة إما على مذهب ابن عربى [1] فإنه يجعل الوجود غير الثبوت ، ويقول : إنَّ وجود الحق قاض على ثبوت الممكنات ، فيصح الاتحاد بين الوجود والثبوت ، وإما على قول مَن لا يفرِّق فيقول : إنَّ الكثرة الخيالية صارت وحدة بعد الكشف ، أو الكثرة العينية صارت وحدة إطلاقية .

* * *

---

(١) ابن عربى : هو أبو بكر محمد بن على ، محيى الدين ، الحاتمى الطائى - نسبة إلى حاتم الطائى - الأندلسى . متصوف مشهور ، من أنصار مذهب وحدة الوجود . أطلق عليه أتباعه : « الشيخ الأكبر » ، وكان يُعرف فى الأندلس باسم « ابن سراقة » ، أما فى المشرق فقد كان يُعرف بابن عربى - من غير أداة التعريف - تمييزاً له عن القاضى أبى بكر بن العربى .

ولد ابن عربى بمرسية فى ١٧ رمضان سنة ٥٦٠ هـ ، ورحل إلى اشبيلية عام ٥٦٨ هـ واستقر بها قرابة الثلاثين عاماً حيث درس الحديث والفقه فيها ثم فى سبتة ، وزار تونس عام ٥٩٠ هـ ، ثم نزح إلى المشرق عام ٥٩٨ هـ حيث تنقل بين مصر - التى تعرض فيها لمحاولة الاغتيال - ثم مكة وبغداد وحلب والموصل وآسيا الصغرى ، حتى استقر أخيرا بدمشق ومات بها عام ٦٣٨ هـ حيث دفن بسفح جبل قاسيون .

كان ابن عربى باطنياً ، واستمد معارفة كلها من ذلك النور الباطنى الذى اعتقد أنَّ الله قد أفاضه عليه ، وذهب إلى أنَّ الوجود كله واحد ، وأنه ليس إلا مظهراً للذات الإلهية ، وعلى ذلك فالأديان المختلفة - فى نظره - كانت متكافئة ، وزعم أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه عرف اسم الله الأعظم ، وعرف الكيمياء بالمكاشفة لا بالتحصيل ، مما دعا الناس إلى اتهامه بالزندقة ومحاولة قتله فى مصر .

وتنحصر فلسفة ابن عربى فى ثلاثة مبادئ : وحدة الوجود ، والتجليات - التى تأثر فيها بالفلسفة الأفلاطونية الجديدة ، والكلمة - التى ابتدع فيها نظرية هى الأولى من نوعها فى الإسلام .

● أما وحدة الوجود - ذلك المذهب الذى اعتنقه ابن عربى - فليس من الإسلام فى قليل أو كثير ، لأنه يرى أنَّ الوجود حقيقة واحدة ، وبعد التعدد والكثرة أمراً قضت به الحواس الظاهرة والعقل الإنسانى القاصر عن أن يدرك الوحدة الذاتية للأشياء ، أو يدرك المجموع كمجموع ، =

= ويتلخص مذهبه فى عبارته القصيرة الواردة فى « الفتوحات » ، وهى قوله : « سبحان مَن خلق الأشياء وهو عينها » . فهو هنا يقرر وجود الأشياء ووجود خالق لها ، كما يقرر الوحدة الذاتية أو العينية للاثنين : الخالق والمخلوق .

ويقول فى الفصوص :

يا خالق الأشياء فى نفسه		أنت لما تخلقــه جــامــع
تخلق ما لا ينتهى كونه		فيك فأنت الضيق الواسع

فلا فرق فى نظره بين الواحد والكثير ، أو الحق والخلق ، إلا بالاعتبار والنظر العقلى . أما العارف فيدرك بطريق الذوق وحدها - وعلى هذا فمذهبه « واحدى » لا « ثنوى » ، إلا إذا اعتبرنا الثنوية فى الصفات لا غير ، لأنه كثيراً ما يصف الحقيقة الوجودية الواحدة بالمتقابلات أمثال : الحق والخلق ، والباطن والظاهر ، والأول والآخر ، والمشبه والمنزه ... وأمثال ذلك .. أما الحقيقة فى ذاتها فواحدة لا تقبل كثرة ما .

ويستند مذهب ابن عربى فى وحدة الوجود إلى مذهب الأشاعرة فى الجوهر والأعراض ، فالذات الإلهية ، أو العين الواحدة التى هى أصل كل شئ تقابل الجوهر عند الأشاعرة ، والمجالى المختلفة التى تظهر فيها هذه الذات تقابل الأعراض والأحوال عندهم ، واختلاف الأعراض على الجوهر الواحد وعدم استقرارها عند الأشاعرة يقابله ما يسميه ابن عربى : بالخلق الجديد ، وهوظهور الذات الإلهية فى صور الموجودات المختلفة فى كل لحظة فى ثوب جديد ، والفرق بين مذهبه ومذهبهم ينحصر فى أنَّ ما يسميه الأشاعرة جوهراً ، يسميه ابن عربى ذاتاً إلٰهية ، وحقيقة مطلقة وحقاً وباطناً ، وما يسمونه أعراضاً وأحوالاً يسميه هو : الخلق والعالم الظاهرى وعالم الحس ... وغير ذلك .

ولا يحاول ابن عربى أن يقيم الدليل على وجود الحق ولا على وحدة الحق والخلق ، أما وجود الحق فغنى - فى نظره - عن البرهان لأنَّ الحق ظاهر بصور جميع الموجودات ، ولا شئ أظهر من الوجود ولا أعرف منه ، وأما وحدته مع الحق فليست مما يقوم عليه الدليل المنطقى ، بل طريق إدراكها الذوق لا غير ، لذلك لا يبالغ ابن عربى فى إظهار عجز العقل عن إدراك الحقائق ، ويصف لنا القلب وأسراره والذوق وإدراكه ، وهذا الجزء من فلسفته يشرح نظرياته فى المعرفة وفى ماهية النفس .

وقد أداه قوله بوحدة الوجود إلى القول بوحدة الأديان ، لا فرق بين سماويها وغير سماويها ، إذ الكل يعبدون الإله الواحد المتجلى فى صورهم وصور جميع المعبودات ، والغاية الحقيقية من عبادة العبد لربه - عند ابن عربى - هى التحقق من وحدته الذاتية معه ، وإنما الباطل من العبادة - فى نظره - أن يقصر العبد ربه على مجلى واحد دون غيره ويسميه إلٰهاً . يقول فى « الفصوص » : =

= عَقَدَ الخلائق في الإله عقائداً وأنا اعتقدتُ جميع ما عقدوه

كما يقول :

لقد كنتُ قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ، ودير لرهبان
وبيت لأوثان ، وكعبة طائف وألواح توراة ، ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنّى توجهت ركائبه ، فالدين ديني وإيماني

ولهذا نرى ابن عربي يحذر أتباعه أن يؤمنوا بدين خاص ، ويكفروا بما سواه ، فيقول : « فإياك أن تتقيد بعقد مخصوص ، وتكفر بما سواه ، فيفوتك خير كثير ، بل يفوتك العلم بالأمر على ما هو عليه ، فكن في نفسك « هيولى » لصور المعتقدات كلها ، فإنَّ اللّٰه تعالى أوسع وأعظم من أن يحصره عقد دون عقد ، فالكل مصيب ، وكل مصيب مأجور ، وكل مأجور سعيد ، وكل سعيد مرضى عنه » .

ويستلزم هذا الدين الأسطوري نفي عذاب الآخرة ، قرب الصوفية - في دينهم - كل مشرك وكل موحد ، ويستحيل أن يعذب الرب نفسه ، ولهذا يقول ابن عربي :

فلم يبق إلا صادق الوعد وحده وما لوعيد الحق عين تعاين
وإن دخلوا دار الشقاء ، فإنهم على لذة فيها نعيم مباين
نعيم جنان الخلد فالأمر واحد وبينهما عند التجلي تباين
يُسمَّى عذاباً من عذوبة طعمه وذاك له كالقشر ، والقشر صائن

● أما التجليات - التي تأثر فيها ابن عربي بالفلسفة الأفلاطونية الجديدة فليست هي الفيوضات التي تكلم عنها أفلوطين . وبالرغم من أنه يذكر « الطفل الأول » و « النفس الكلية » و « الطبيعة » و « الجسم الكلي » وغيرها من الألفاظ التي يطلقها أفلوطين على فيوضاته ، إلا أنَّ ابن عربي لا يعني بها سوى أسماء مختلفة لمسمى واحد هو الحقيقة الوجودية المطلقة .

فالتجليات عنده مسألة اعتبارية محضة ، وليست أسماء لموجودات مختلفة متمايزة كما هي عند أفلوطين ، فإذا اعتبرنا الواحد مجرداً عن العلاقات والنسب وعن كل ما من شأنه أن يحده أو يقيده ، قلنا إنه تجلى في صورة الأحدية أو في العماء .

وإذا نظرنا إليه من حيث علاقته بما هو ممكن الوجود من الكائنات ، قلنا إنه تجلى في مرتبة الألوهية أو مرتبة الوحدانية ، أو في مقام الجمع ، أو مرتبة الأعيان الثابتة . =

= وإذا نظرنا إليه من حيث كونه عقلاً كلياً يحتوى جميع صور الموجودات ، قلنا إنه تجلى فى صورة العقل الأول فى الاسم الباطن ، أو فى الغيب ، أو فى صورة حقيقة الحقائق .

وإذا نظرنا إليه من حيث إنه مبدأ الحياة فى الكون ، قلنا إنه تجلى فى صورة النفس الكلية . أو من حيث ظهوره بالفعل فى صورة الكائنات ، قلنا إنه تجلى فى صورة أعيان الموجودات أو الجسم الكلى أو فى الاسم الظاهر .. أو من حيث كونه جوهراً يتقبل جميع صور الكون ، قلنا إنه تجلى فى صورة الهيولى أو المادة الأولى أو الكتاب المسطور .

وبهذه الطريقة يشرح ابن عربى ما يسميه بالتجليات ويضعها موضع فيوضات أفلوطين مؤولاً هذه الفيوضات بما يلائم مذهبه الخاص ، واضعاً اصطلاحات جديدة لها مستمدة من القرآن أو غيره ، زائداً عليها عناصر جديدة من فلسفة أنباذ قليس وأفلاطون وأرسطو وغيرهم .

● ولابن عربى نظرية خاصة فى « الكلمة » يمكن أن يقال إنها أول نظرية من نوعها فى الإسلام ، وعنها أخذ كل مَن أتى بعده من الفلاسفة والمتصوفين الإسلاميين الذين خاضوا فى هذا الموضوع ..

ويبحث ابن عربى فى « الكلمة » من ثلاث نواح :

الأولى - الناحية الميتافيزيقية : وفيها يستعمل « الكلمة » كمرادف للعقل الأول أو العقل الكلى ، ويسميها حقيقة الحقائق ، ويقصد بها العقل الإلهى الذى هو مبدأ الحياة والوجود فى الكون .

الثانية - الناحية الصوفية : وهنا يسمى ابن عربى « الكلمة » بالقطب ، وبروح الخاتم ، وبالحقيقة المحمدية ، ويقصد بها المنبع الذى يُستمَد منه كل علم إلهى وكل وحى وإلهام وعلم باطن .

ولا يعنى - ابن عربى - بالحقيقة المحمدية محمداً الرسول ، بل الكلمة الكلية الجامعة الظاهرة بصورة الأنبياء من لدن آدم ، أو الواسطة فى نقل العلم الإلهى إلى قلوب الكلم - جمع كلمة - ويقصدون بها الأنبياء والأولياء وأفراد الإنسان الكامل - بحسب ما فيها من الاستعدادات وما جُبلت عليه أعيانها ، وبحسب الأسماء الإلهية التى تؤثر فيها .

الثالثة - الناحية الإنسانية : وفيها يبحث ابن عربى عن « الكلمة » متمثلة فى صورة الإنسان الكامل ، وهو يعنى بالإنسان الكامل : الإنسان الذى تحقق فيه الوجود بكل معانيه ، ولذلك يصفه بأنه الكون الجامع والعالم الصغير الذى تتجلى فيه الجمعية الإلهية التى استحق من أجلها أن يسمى خليفة الله وصورته وروح العلم وعلّته .

وهذا الإنسان الكامل بالنسبة لحقيقة الحقائق بمثابة الظاهر من الباطن ، فلا يتجلى الله فى كامل صفاته إلا فيه ، ولا يعرفه حق معرفته إلا هو ، والإنسان الكامل اسم عام يُطلق على كل الأناسى الكاملين الذين تحققت بوجودهم كل معانى الوجود ، وأخص هؤلاء الأنبياء والأولياء . =

= وعلى هذا .. فالكلمة فى نظرية ابن عربى هى العقل الإلهى السارى فى جميع الكون ، أو العالم العقلى الشامل لجميع الأعيان الثابتة للوجودات ، فهى لهذا مبدأ الحياة والتدبير ، ومبدأ المعرفة الحقيقية والعلم الباطن ، أو هى تجلى الواحد الحق فى ثلاث صور : صورة حقيقة الحقائق ، وصورة الحقيقة المحمدية ، وصورة الإنسان الكامل ، والكل فى نهاية مذهبه واحد ..

وهكذا .. أثار مذهب ابن عربى اختلافاً كبيراً فى آراء المسلمين فى عقيدته ، وكثر محبوه والمعجبون به ، كما كثر الناقمون عليه ، ووصفت عقيدته بأعظم المتناقضات ، فسماه قوم : قطب الله ، ووليه ، والعارف بالله ، كما نعته آخرون بأنه أكبر زنديق ، وأدنأ مشرك .

ومن أشهر المعجبين بابن عربى : مجد الدين الفيروز آبادى ، وسراج الدين المخزومى ، وكمال الدين الزملكانى ، وقطب الدين الحموى ، وصلاح الدين الصفدى ، وشهاب الدين عمر السهروردى ، ومؤيد الدين الجندى ، وكمال الدين الكاشى ، وفخر الدين الرازى ، ومحمد المغربى - أستاذ الجلال السيوطى - ، وبدر الدين بن جماعة ، وسراج الدين البلقينى ، وتقى الدين السبكى ، والجلال السيوطى ، وابن كمال باشا ، وعبد الرازق القاشانى وغيرهم .

ومن أشهر الناقمين عليه : رضى الدين بن الخياط - الذى كتب عن عقيدته كتاباً رماه فيه بالكفر ، كما أنَّ من ألد أعدائه وأعداء الصوفية على الإطلاق : شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، وابن إياس - صاحب تاريخ مصر ، والتفتازانى ، وعلى القارى ، والإمام جمال الدين محمد بن نور الدين - الذى ذكره فى كتابه « كشف الظلمة عن هذه الأنه » وكثيرون غيرهم .

ويقول الإمام برهان الدين البقاعى (المتوفى عام ٨٨٥ هـ) : « ويدور كلام ابن عربى على الوحدة المطلقة ، وهى أنه لا شئ سوى هذا العالم ، وأن الإله أمر كلى لا وجود له إلا فى ضمن جزئياته ، ثم إنه يسعى فى إبطال الدين من أصله ، بما يحل به عقائد أهله ، بأنَّ كل أحد على صراط مستقيم ، وأن الوعيد لا يقع منه شئ ، وعلى تقدير وقوعه فالعذاب المتوعَد به إنما هو نعيم وعذوبة ، ونحو ذلك !! وإن حصل لأهله ألم ، فهو لا ينافى السعادة والرضا ، كما لم ينافها ما يحصل من الآلام فى الدنيا ، وهذا يحط عند مَن له وعى على اعتقاد : أنه لا إله أصلاً ، وأنه ما ثَمَّ إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما وراء ذلك شئ » .

من أجل هذا صرح بكفره ، وكفر مَن نحا نحوه فى مثل هذه الأقوال الظاهرة فى الضلال - جماعة من العلماء الأعلام ومشايخ الإسلام كالإمام شهاب الدين بن أبى حجلة التلمسانى الحنفى ، والإمام سيف الدين بن بلبان السعودى (ت ٧٣٦ هـ) ، والقاضى عز الدين بن عبد السلام الدمشقى =

= الشافعى (ت ٦٦٠هـ) ، وشيخ الإسلام تقى الدين بن دقيق العيد (ت ٧٠٢ هـ) ، والحافظ شمس الدين الذهبى (ت ٧٤٨ هـ) والصلاح خليل الصفدى ، وابن سيد الناس (ت ٧٣٤ هـ) ، والعلأمة محمد بن محمد المعروف بابن الجزرى (ت ٨١٤ هـ) ، وعماد الدين إسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤ هـ) ، وقاضى القضاة تقى الدين على بن عبد الكافى (ت ٧٥٦ هـ) .

كما أنكر عليه الإمام قطب الدين بن القسطلانى وحذّر الناس من تصديقه ، وبيّن فى مصنفاته فساد قاعدته وضلال طريقه ، بالإضافة إلى عماد الدين أحمد بن إبراهيم الواسطى (ت ٧١١ هـ) ، فضلاً عن شيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن تيمية (المتوفى عام ٧٢٨ هـ) والذى تصدى لزندقته وكفره وضلاله .

وثَمّ قول مشهور ، على ألسنة الصوفية بقتل محيى الدين بن عربى فى قوله : « معبودكم تحت قدمى » ، على أنّ الثابت أن المسلمين رجموا قبره بالحجارة ، وطمروا جثته حينما تبيّن لهم زيفه فى نظريته المعروفة بوحدة الوجود ، وظل قبره موضع ازدراء المسلمين إلى أن أفلح الصوفية على عهد السلطان سليم الأول فى الترويج لمؤلفاته ، وإقامة مسجد على قبره .

وأهم تصانيف ابن عربى : الفتوحات المكية ، وفصوص الحكم .

وله مجموعة صغيرة من الاشعار الغزلية نظمها فى مكة عام ٦١١ هـ - فى امرأة عالمة عرفها بمكة عام ٥٩٨ هـ - أشاد فيها بعلم هذه المرأة وجمالها الفتّان ، وما كان بينه وبينها من حب ، ثم رأى فى العام التالى أنه من المفيد أن يتبع أشعاره بشرح صوفى .

ولابن عربى - إلى جانب ذلك - من الكتب المطبوعة : محاضرة الأبرار - وهو فى الأدب والتاريخ (القاهرة عام ١٢٨٢ هـ) وديوان فى الأشعار الصوفية (بولاق عام ١٢٧١ هـ) ، وتفسير للقرآن (بولاق عام ١٢٨٧ هـ) ، وكتاب الأخلاق (القاهرة د . ت) ، والأمر المحكم (استانبول عام ١٣١٥ هـ) ، وتحفة السفرة إلى حضرة البررة (الآستانة عام ١٣٠٠ هـ) ، ومجموع الرسائل الالهية (القاهرة عام ١٣٢٥ هـ) ، ومواقع النجوم ومطالع أهلّة الأسرار والعلوم (القاهرة عام ١٣٢٥ هـ) . ويبلغ ما بقى لنا من تآليفه مائة وخمسين كتابا ، ويظهر أنّ هذا العدد ليس إلا نصف ما ألفّه ابن عربى فى الواقع .

(انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة « ابن عربى » ، وكذا ، « تنبيه الغبى إلى تكفير ابن عربى » للعلأمة برهان الدين البقاعى ، نشر دار التقوى ص ١٩ ، ١٥ بتصرف ، وانظر أيضاً : كتابنا « اللّه توحيد .. وليس وحدة » - نشر مكتبة وهبة سنة ١٩٨٦ م) . (البلتاجى) .

فصل

فى أنَّ أصل مذهب الاتحادية واضطرابهم فيه على ثلاث مقالات

ولما كان أصلهم الذي بنوا عليه أن وجود المخلوقات والمصنوعات - حتى وجود الجن والشياطين والكافرين والفاسقين والكلاب والخنازير والنجاسات والكفر والفسوق والعصيان - عين وجود الرب ، لا أنه متميز عنه منفصل عن ذاته ، وإن كان مخلوقاً له مربوباً مصنوعاً له قائماً به ، وهم يشهدون أنَّ فى الكائنات تفرقاً وكثرة ظاهرة بالحس والعقل ، فاحتاجوا إلى جمع يزيل الكثرة ، ووحدة ترفع التفرق مع ثبوتها ، فاضطربوا على ثلاث مقالات ، أنا أبيِّنها لك وإن كانوا هم لا يبيِّن بعضهم مقالة نفسه ومقالة غيره لعدم كمال شهود الحق وتصوره .

* * *

المقالة الأولى

مقالة ابن عربى صاحب « فصوص الحكم »

وهى مع كونها كفراً فهو أقربهم إلى الإسلام لما يوجد فى كلامه من الكلام الجيد كثيراً ، ولأنه لا يثبت على الاتحاد ثبات غيره ، بل هو كثير الاضطراب فيه ، وإنما هو قائم مع خياله الواسع الذى يتخيل فيه الحق تارة والباطل أخرى . والله أعلم بما مات عليه . فإنَّ مقالته مبنية على أصلين ..

• الأصل الأول لمذهب ابن عربى « أنَّ المعدوم شئ ثابت فى العدم » :

أحدهما : أنَّ المعدوم شئ ثابت فى العدم ، موافقة لمن قال ذلك من المعتزلة والرافضة . وأول مَن ابتدع هذه المقالة فى الإسلام أبو عثمان الشحام شيخ أبى على الجبائى ، وتبعه عليها طوائف من القدرية المبتدعة من المعتزلة والرافضة [1] ، وهؤلاء يقولون : إنَّ كل معدوم يمكن وجوده فإنَّ حقيقته وماهيته وعينه ثابتة فى العدم ، لأنه لولا ثبوتها لما تميَّز المعلوم المخبَر عنه من غير المعلوم المخبَر عنه ، ولما صح قصد ما يراد إيجاده ، لأنَّ القصد يستدعى التمييز ، والتمييز لا يكون إلا فى شئ ثابت ، لكن هؤلاء - وإن ابتدعوا هذه المقالة التى هى باطلة فى نفسها وقد كفَّرهم بها طوائف من متكلمة السُنَّة - فهم يعترفون بأنَّ الله خلق وجودها ، ولا يقولون إنَّ عين وجودها عين وجود الحق . وأما صاحب

---

(١) انظر فى التعريف بالقدرية والمعتزلة والرافضة جـ ١ هامش ص ٣٥ ، ٢١٣ ، و جـ ٣ هامش ص ١٢ ، ١١١ (البلتاجى)

الفصوص وأتباعه فيقولون : عين وجودها عين وجود الحق ، فهى متميزة بذواتها الثابتة فى العدم متحدة بوجود الحق العالِم بها . وعامة كلامه ينبنى على هذا لمن تدبره وفهمه .

وهؤلاء القائلون بأنَّ المعدوم شئ ثابت فى العدم سواء قالوا بأنَّ وجودها خلق الله أو هو الله ، يقولون إنَّ الماهيات والأعيان غير مجعولة ولا مخلوقة ، وإنَّ وجود كل شئ قدر زائد على ماهيته ، وقد يقولون : الوجود صفة للموجود .

● رد شُبه القائلين بقِدَم العالَم ومادته :

وهذا القول وإن كان فيه شبه بقول القائلين بقِدَم العالَم ، أو القائلين بقِدَم مادة العالَم وهيولاه المتميزة عن صورته ، فليس هو إياه ، وإن كان بينهما قدر مشترك فإنَّ هذه الصورة المحدَثة من الحيوان والنبات والمعادن ليست قديمة باتفاق جميع العقلاء ، بل هى كائنة بعد أن لم تكن ، وكذلك الصفات والأعراض القائمة بأجسام السموات ، والاستحالات القائمة بالعناصر من حركات الكواكب والشمس والقمر والسحاب والمطر والرعد والبرق وغير ذلك ، كل هذا حادث غير قديم ، عند كل ذى حس سليم ، فإنه يرى ذلك بعينه . والذين يقولون بأنَّ عين المعدوم ثابتة فى القِدَم أو بأنَّ مادته قديمة ، يقولون بأنَّ أعيان جميع هذه الأشياء ثابتة فى القِدَم ، ويقولون إنَّ مواد جميع العالَم قديمة دون صوره .

واعلم أنَّ المذهب إذا كان باطلاً فى نفسه لم يمكن الناقد له أن ينقله على وجه يُتصور تصوراً حقيقياً فإنَّ هذا لا يكون إلا للحق . فأما القول الباطل فإذا بُيِّن فبيانه يُظهر فساده ، حتى يقال : كيف اشتبه هذا على أحد ، ويتعجب من اعتقادهم إياه ، ولا ينبغى للإنسان أن يعجب ، فما من شئ يُتخيل من أنواع الباطل الا وقد ذهب إليه فريق من الناس . ولهذا وصف الله أهل الباطل بأنهم أموات وأنهم : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾ (١)، وأنهم : ﴿ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٢).

---

(١) البقرة : ١٨ (٢) الأعراف : ١٧٩

و ﴿ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [١] ، وأنهم : ﴿ فِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ [٢] ، وأنهم : ﴿ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [٣] ، وأنهم : ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ [٤] .

وإنما نشأ – والله أعلم – الاشتباه على هؤلاء من حيث رأوا أنّ الله سبحانه يعلم ما لم يكن قبل كونه – أو ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [٥] فرأوا أنّ المعدوم الذى يخلقه يتميز فى علمه وإرادته وقُدرته ، فظنوا ذلك لتميز ذات له ثابتة وليس الأمر كذلك ، وإنما هو متميز فى علم الله وكتابه ، والواحد منا يعلم الموجود والمعدوم الممكن والمعدوم المستحيل ، ويعلم ما كان كآدم والأنبياء ، ويعلم ما يكون كالقيامة والحساب ، ويعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، كما يعلم ما أخبر الله به عن أهل النار : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [٦] ، وأنهم : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ ﴾ [٧] ، وأنه :﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [٨] ، وأنه : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾ [٩] ، وأنهم :﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً ﴾ [١٠] ، وأنه : ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً ﴾ [١١] ونحو ذلك من الجمل الشرطية التى يُعلم فيها انتفاء الشرط أو ثبوته .

---

(١) البقرة : ١٧١ (٢) الذاريات : ٨ – ٩ بلفظ : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى ... ﴾ .

(٣) التوبة : ٤٥ (٤) البقرة : ١٥ (٥) يس : ٨٢

(٦) الأنعام : ٢٨ (٧) الأنفال : ٢٣ (٨) الأنبياء : ٢٢

(٩) الإسراء : ٤٢ (١٠) التوبة : ٤٧ (١١) النور : ٢١

• أحاديث كتابة المقادير وكتابة محمد نبياً وآدم بين الروح والجسد :

فهذه الأمور التى نعلمها نحن ونتصورها - إما نافين لها أو مثبتين لها فى الخارج أو مترددين - ليس بمجرد تصورنا يكون لأعيانها ثبوت فى الخارج عن علمنا وأذهاننا ، كما نتصور جبل ياقوت وبحر زئبق وإنساناً من ذهب وفرساً من حجر . فثبوت الشئ فى العلم والتقدير ليس هو ثبوت عينه فى الخارج ، بل العالِم يعلم الشئ ويتكلم به ويكتبه وليس لذاته فى الخارج ثبوت ولا وجود أصلاً . وهذا هو تقدير الله السابق لخلقه كما فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال : « إنَّ الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » .

وفى سنن أبى داود عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ قال : « أول ما خلق الله القلم فقال : اكتب ، قال : رَبِّ وما أكتب ؟ قال : أكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة » ، وقال ابن عباس : « إنَّ الله خلق الخلق وعلم ما هم عاملون ، ثم قال لعلمه : كن كتاباً ، فكان كتاباً ، ثم أنزل تصديق ذلك فى كتابه فقال : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ﴾ [1] » .

وهذا هو معنى الحديث الذى رواه أحمد فى مسنده عن ميسرة الفجر قال : قلتُ : يا رسول الله ، متى كنت نبياً - وفى رواية : متى كُتِبتَ نبياً ؟ - قال : « وآدم بين الروح والجسد » هكذا لفظ الحديث الصحيح ، وما يرويه هؤلاء الجُهَّال [2] كابن عربى فى الفصوص وغيره من جُهَّال العامة : « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين » ، « كنتُ نبياً وآدم لا ماء ولا طين » فهذا لا أصل له ولم

---

(١) الحج : ٧٠ (٢) أى الجهَّال بعلم الرواية والأسانيد ونقد الحديث .

يروه أحد من أهل العلم الصادقين ، ولا هو فى شئ من كتب العلم المعتمدة بهذا اللفظ بل هو باطل ، فإنَّ آدم لم يكن بين الماء والطين قط فإن الله خلقه من تراب ، وخلط التراب بالماء حتى صار طيناً ، ويبس الطين حتى صار صلصالاً كالفخار ، فلم يكن له حال بين الماء والطين مركَّب من الماء والتراب ، ولو قيل : بين الماء والتراب لكان أبعد عن المحال ، مع أنَّ هذه الحال لا اختصاص لها ، وإنما قال : « بين الروح والجسد » ، وقال : « وإنَّ آدم لمنجدل فى طينته » لأنَّ آدم بقى أربعين سنة قبل نفخ الروح فيه كما قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإنسَانُ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ ﴾ ... الآية [1] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ ﴾ ... الآيتين [2] ، وقال تعالى : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسَانِ من طين ﴾ ... الآيتين [3] ، وقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ ﴾ ... الآية [4] . والأحاديث فى خلق آدم ونفخ الروح فيه مشهورة فى كتب الحديث والتفسير وغيرهما .

● روايات حديث : « كنتُ نبياً وإنَّ آدم لكذا » وتفسيره الحق :

فأخبر ﷺ أنه كان نبياً - أى كُتِبَ نبياً - وآدم بين الروح والجسد . وهذا والله أعلم لأنَّ هذه الحالة فيها يُقدَّر التقدير الذى يكون بأيدى ملائكة الخلق فيُقدِّر لهم ويُظهر لهم ويُكتب ما يكون من المخلوق قبل نفخ الروح فيه ، كما أخرج الشيخان فى الصحيحين وفى سائر الكتب الأمهات حديث الصادق المصدوق ، وهو من الأحاديث المستفيضة التى تلقاها أهل العلم بالقبول وأجمعوا على تصديقها وهو حديث الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إنَّ أحدكم يُجمع خلقه فى بطن

---

(١) الإنسان : ١
(٢) الحجر : ٢٨
(٣) السجدة : ٧
(٤) سورة ص : ٧١

أمه أربعين يوماً نُطفة ، ثم يكون عَلَقة مثل ذلك ، ثم يكون مُضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله الملك فيؤمَر بأربع كلمات فيقال : اكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد ، ثم يُنفخ فيه الروح » - وقال : « فوالذى نفسى بيده إنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار ، وإنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة » ، فلما أخبر الصادق المصدوق أنَّ الملك يكتب رزقه وعمله وأجله وشقى أو سعيد بعد خلق الجسد وقبل نفخ الروح ، وآدم هو أبو البَشر كان أيضاً من المناسب لهذا أن يكتب بعد خلق جسده وقبل نفخ الروح فيه ما يكون منه ، ومحمد ﷺ سيد ولد آدم فهو أعظم الذُرِّية قَدراً وأرفعهم ذكراً ، فأخبر ﷺ أنه كُتِبَ نبياً حينئذ ، وكتابة نبوَّته هو معنى كون نبوَّته فإنه كون فى التقدير الكتابى ، ليس كوناً فى الوجود العينى ، إذ نبوَّته لم يكن وجودها حتى نبَّأه الله تعالى على رأس أربعين من عمره ﷺ كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ ... الآية [1] . وقال : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴾ ... الآية [2] . وقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ ﴾ ... الآية [3] . ولذلك جاء هذا المعنى مفسراً فى حديث العِرباض بن سارية عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إنى عبد الله مكتوب خاتم النبيين وإنَّ آدم لمنجدل فى طينته ، وسأخبركم بأول أمرى : دعوة إبراهيم ، وبشارة عيسى ، ورؤيا أمى التى رأت حين وضعتنى وقد خرج لها نور أضاءت لها منه قصور الشام » (هذا لفظ الحديث من رواية ابن وهب) :

حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد عن عبد الأعلى بن هلال السلمى عن العِرباض رواه البغوى فى شرح السُنَّة هكذا ، ورواه الليث بن سعد عنه نحوه ،

---

(١) الشورى : ٥٢ (٢) الضحى : ٦ (٣) يوسف : ٣

ورواه الإمام أحمد فى المسند عن ابن مهدى : حدثنا معاوية بن صالح بالإسناد عن العرباض . قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى عبد الله خاتم النبيين وإنَّ آدم لمنجدل فى طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك : دعوة أبى إبراهيم » ... الحديث . وفيه : « كذلك أمهات النبيين يرين » ، وقوله : « لمنجدل فى طينته » أى ملتف ومطروح على وجه الأرض صورة من طين لم تجر فيه الروح بعد .

وقد رُوِىَ أنَّ الله كتب اسمه على العرش وعلى ما فى الجنة من الأبواب والقباب والأوراق ، ورُوِىَ فى ذلك عدة آثار توافق هذه الأحاديث الثابتة التى تبيِّن التنويه باسمه وإعلاء ذكره حينئذ .

وقد تقدم لفظ الحديث الذى فى المسند عن مسيرة الفجر لما قيل له : متى كنتَ نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » ، وقد رواه أبو الحسن بن بشران من طريق الشيخ أبى الفرج بن الجوزى فى « الوفا ، بفضائل المصطفى » ﷺ : حدثنا أبو جعفر محمد بن عمرو ، حدثنا أحمد بن إسحاق بن صالح ، حدثنا محمد بن صالح ، حدثنا محمد بن سنان العوفى ، حدثنا إبراهيم بن طهمان عن يزيد بن ميسرة عن عبد الله بن سفيان عن ميسرة قال : قلت : يارسول الله ، متى كنت نبياً ؟ قال : « لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وخلق العرش كتب على ساق العرش : محمد رسول الله خاتم الأنبياء ، وخلق الله الجنة التى أسكنها آدم وحواء فكتب اسمى على الأبواب والأوراق والقباب والخيام ، وآدم بين الروح والجسد ، فلما أحياه الله تعالى نظر إلى العرش فرأى اسمى فأخبره الله أنه سيد ولدك ، فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمى إليه » .

● حديثا استشفاع آدم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهما لا يصحان :

ورى أبو نعيم الحافظ فى كتاب « دلائل النبوة » ، ومن طريق الشيخ أبى الفرج : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا أحمد بن رشدين ، حدثنا أحمد بن سعيد الفهرى ، حدثنا عبد الله بن إسماعيل المدنى عن عبد الرحمن زيد بن أسلم عن أبيه عن

عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : « لما أصاب آدم الخطيئة رفع رأسه فقال : يارب ، بحق محمد إلا غفرتَ لى ، فأوحى إليه : وما محمد ؟ ومَن محمد ؟ فقال : يارب ، إنك لما أتممت خلقى رفعتُ رأسى إلى عرشك فإذا عليه مكتوب : لا إله إلاّ الله محمد رسول الله ، فعلمتُ أنه أكرم خلقك عليك ، إذ قرنت اسمه مع اسمك . فقال : نعم ، قد غفرتُ لك وهو آخر الأنبياء من ذريتك ولولاه ماخلقتك » ، فهذا الحديث يؤيد الذى قبله وهما كالتفسير للأحاديث الصحيحة [1] .

وفى الصحيحين عن عائشة قالت : « أول ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء ، فكان يأتى غار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق ، وهو بحراء ، فأتاه الملك فقال له : اقرأ . قال : لستُ بقارىء . قال : فأخذنى فغطّنى حتى بلغ منى الجَهد ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ . فقلتُ : لستُ بقارىء . قال : فأخذنى فغطّنى حتى بلغ منى الجَهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : لستُ بقارىء ، ثم أخذنى فغطّنى حتى بلغ منى الجَهد ، ثم أرسلنى ، فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [2] ، فرجع لها رسول الله ﷺ ترجف بوادره » ... الحديث بطوله ، فقد أخبر فى هذا الحديث الصحيح أنه لم يكن قارئاً ، وهذه السورة أول ما أنزل الله عليه وبها صار نبياً ، ثم أنزل عليه سورة المدثر ، وبه صار رسولاً لقوله : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [3] ، ولهذا ذكر سبحانه فى هذه السورة الوجود العينى والوجود العلمى . وهذا أمر بيِّن يعقله الإنسان بقلبه لا يحتاج فيه إلى سمع ، فإنَّ الشئ

---

(١) يشير بقوله : « كالتفسير للأحاديث الصحيحة » إلى عدم صحتهما وكونهما ليسا بمعنى الأحاديث الصحيحة السابقة وإنما يوافقانها من وجه واحد وهو كتابة المقادير قبل خلق ما جرت فيه من الخلق ، وغرضه منها تقوية الشواهد على علم الله بالأشياء وكتابته إياها قبل خلقها ، وأنَّ ثبوتها فى العلم غير ثبوتها فى الوجود .

(٢) العلق : ١ - ٢ (٣) المدثر : ٢

لا يكون قبل كونه . وأما كون الأشياء معلومة للّه قبل كونها فهذا حق لا ريب فيه . وكذلك كونها مكتوبة عنده أو عند ملائكته ، كما دلّ على ذلك الكتاب والسُنّة وجاءت به الآثار .

• ذكر الوجودين « العلمى » و « العينى » فى سورة العَلَق ، وإثبات القَدَر وكتابته :

وهذا العلم والكتاب هو القَدَر الذى ينكره غالية القَدرية [1] ويزعمون أنّ اللّه لا يعلم أفعال العباد إلا بعد وجودها وهم كفار ، كفّرهم الأئمة كالشافعى وأحمد وغيرهما

وقد بيّن الكتاب والسُنّة هذا القَدَر وأجاب النبى ﷺ عن السؤال الوارد عليه ، وهو ترك العمل لأجله ، فأجاب ﷺ عن ذلك ، ففى الصحيحين عن علىّ بن أبى طالب قال : كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد ، فأتانا رسول اللّه ﷺ فقعد وقعدنا حوله ، ومعه مخصرة [2] فجعل ينكت بمخصرته ثم قال : « ما منكم من أحد - أو قال : ما نفس منفوسة - إلا قد كتب اللّه مكانها من الجنة والنار ، وإلا قد كتب شقية أو سعيدة » . قال : فقال رجل : يا رسول اللّه ، أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ، فمَن كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومَن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ؟ ، فقال : « اعملوا فكل مُيَسّر : أما أهل السعادة فيُيَسّرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فيُيَسّرون لعمل أهل الشقاوة » - ثم قرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴾ [3] ... إلى آخر الآيات » .

وفى رواية : كان رسول اللّه ﷺ ذات يوم جالساً وفى يده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه فقال : « ما منكم من نفس إلا وقد عُلِمَ منزلها من الجنة

---

(١) للتعريف بالقدرية انظر جـ ١ هامش ص ٣٥ (البلتاجى) .

(٢) كمكنسة : ما يتوكأ عليه كالعصا ونحوه وما يأخذه الملك ، يشير به إذا خاطب ، والخطيب إذا خطب .

(٣) الليل : ٥

والنار » ، قالوا : يا رسول الله ، فلمَ نعمل ؟ أفلا نتكل ؟ قال : « لا .. اعملوا فكلٌ ميَّسرٌ لما خُلِقَ له » - ثم قرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾ ... الآية » .

● أحاديث القَدَر وكونه يقتضى العمل لا تركه :

وفى الصحيحين أيضاً عن عمران بن حصين قال : قيل : يا رسول الله ، أعُلِمَ أهل الجنة من أهل النار؟ قال : « نعم » قال فقيل : ففيم يعمل العاملون ؟ فقال : « كلٌ ميَّسرٌ لما خُلِقَ له » ، وفى رواية : أنَّ رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ . فقالا : يا رسول الله ، أرأيتَ ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه ، أشئ قُضِىَ عليهم ومضى فيهم من قَدَر قد سبق ، أو فيما يستقبلون به مما آتاهم به نبيهم وتثبت الحجة عليهم ؟ فقال : « لا .. بل شئ قُضِىَ عليهم ومضى فيهم ، وتصديق ذلك كتاب الله : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [1] ».

وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : جاء سراقة بن مالك بن جعشم قال : يا رسول الله ، بيِّن لنا ديننا كأنَّا خُلقنا الآن ، فيم العمل اليوم ؟ أفيما جفَّت به الأقلام وجرت به المقادير ؟ أم فيما يستقبل ؟ قال : « لا .. بل فيما جفَّت به الأقلام وجرت به المقادير » قال : ففيم العمل ؟ قال : « اعملوا فكلٌ ميَّسر ».

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة - قال : وعرشه على الماء ».

وفى سنن أبى داود عن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه : يابنى ، إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن

---

(١) الشمس : ٧ - ٨

ليصيبك . سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ أول ماخلق الله القلم فقال له : اكتب ، قال : رَبِّ ، ما أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة » ، يا بنى ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « مَن مات على غير هذا فليس منى » .

وراوه الترمذى من وجه آخر عن الوليد بن عبادة أنه قال : دعانى - يعنى أباه - عند الموت فقال : يابنى ، اتقِّ الله ، واعلم أنك إن تتقِّ الله تؤمن بالله وتؤمن بالقَدَر كله ، خيره وشره ، وإن متَّ على غير هذا دخلت النار ، إنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ أول ما خلق الله القلم فقال : اكتب ، قال : ما أكتب ؟ قال : اكتب القَدَر ، ما كان وما هو كائن إلى الأبد » .

وفى الترمذى أيضاً عن أبى حراثة عن أبيه أنَّ رجلاً أتى النبى ﷺ فقال : أرأيت رُقًى نسترقها وداوء نتداوى به وتُقاة نتقيها ، هل ترد من قضاء الله تعالى شيئاً ؟ قال : « هى من قَدَرِ الله ».

- تعليق العلم بالمحال والممكن الذى لا يوجد لا يقتضى وجودهما فيه :

لكن إنما ثبتت فى التقدير المعدوم الممكن الذى سيكون ، فأما المعدوم الممكن الذى لا يكون فمثل إدخال المؤمنين النار ، وإقامة القيامة قبل وقتها ، وقلب الجبال يواقيت ... ونحو ذلك ، فهذا المعدوم ممكن وهو شئ ثابت فى العدم عند مَن يقول : المعدوم شئ ، ومع هذا فليس بمقدَّر كونه ، والله يعلمه على ما هو عليه ، يعلم أنه ممكن وأنه لا يكون ، وكذلك الممتنعات مثل شريك البارى وولده ، فإن الله يعلم أنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، ويعلم أنه ليس له شريك فى المُلك ولا ولى من الذل ، ويعلم أنه حى قيوم لا تأخذه سِنَة ولا نوم ، ويعلم أنه لا يعزب عنه مثقال ذَرَّة فى السمٰوات ولا فى الأرض . وهذه المعدومات الممتنعة ليست شيئاً باتفاق العقلاء مع ثبوتها فى العلم ، فظهر أنه

قد ثبت فى العلم ما لا يوجد وما يمتنع أن يوجد إذ العلم واسع ، فإذا توسع المتوسع وقال : المعدوم شئ فى العلم ، أو موجود فى العلم ، أو ثابت فى العلم فهذا صحيح ، أما إنه فى نفسه شئ فهذا شئ باطل ، وبهذا تزول الشُبهة الحاصلة فى هذه المسألة .

والذى عليه أهل السُنَّة والجماعة وعامة عقلاء بنى آدم من جميع الأصناف : أنَّ المعدوم ليس فى نفسه شيئاً ، وأنَّ ثبوته ووجوده وحصوله شئ واحد ، وقد دلَّ على ذلك الكتاب والسُنَّة والإجماع القديم ، قال اللّه تعالى لزكريا : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ من قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ (١) ، فأخبر أنه لم يك شيئاً ، وقال تعالى : ﴿ أَوَ لاَ يَذْكُرُ الإنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ من قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ ﴾ (٣) ، فأنكر عليهم اعتقاد أن يكونوا خُلقوا من غير شئ خلقهم أم خلقوا هم أنفسهم ، ولهذا قال جبير بن مطعم : لما سمعتُ رسول اللّه ﷺ قرأ هذه السورة أحسستُ بفؤادى قد انصدع . ولو كان المعدوم شيئاً لم يتم الإنكار ، إذا جاز أن يقال : ما خلقوا إلا من شئ ، لكن هو معدوم فيكون الخالق لهم شيئاً معدوماً . وقال تعالى : ﴿فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ (٤) ولو كان المعدوم شيئاً لكان التقدير : لا يظلمون موجوداً ولا معدوماً ، والمعدوم لا يُتصور أن يظلموه فإنه ليس لهم .

وأما قوله : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (٥) فهو إخبار عن الزلزلة الواقعة أنها شئ عظيم ، ليس إخباراً عن الزلزلة فى هذه الحال ، ولهذا قال : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ (٦) ولو أُريد به الساعة لكان المراد بها شئ عظيم فى العلم والتقدير .

---

(١) مريم : ٩ (٢) مريم : ٦٧ (٣) الطور : ٣٥

(٤) مريم : ٦٠ (٥) الحج : ١ (٦) الحج : ٢

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونَ ﴾ [1] قد استدل به مَن قال : المعدوم شئ ، وهو حُجَّة عليه ، لأنه أخبر أنه يريد الشئ وأنه يكونُه ، وعندهم أنه ثابت فى العدم ، وإنما يراد وجوده لا عينه ونفسه . والقرآن قد أخبر أنَّ نفسه تُراد وتكوَّن وهذا من فروع هذه المسألة .

● حقيقة الشئ وماهيته ووجوده الذهنى والخارجى واللفظى :

فإنَّ الذى عليه أهل السُنَّة والجماعة وعامة العقلاء أنَّ الماهيات مجعولة ، وأنَّ ماهية كل شئ عين وجوده ، وأنه ليس وجود الشئ قدراً زائداً على ماهيته ، بل ليس فى الخارج إلا الشئ الذى هو الشئ وهو عينه ونفسه وماهيته وحقيقته ، وليس وجوده وثبوته فى الخارج زائداً على ذلك .

وأولئك يقولون : الوجود قدر زائد على الماهية ، ويقولون : الماهيات غير مجهولة ، ويقولون : وجود كل شئ زائد على ماهيته ، ومن المتفلسفة مَن يفرِّق بين الوجود والواجب والممكن فيقول : الوجود الواجب عين الماهية . وأما الوجود الممكن فهو زائد على الماهية . وشُبهة هؤلاء ما تقدم من أنَّ الإنسان قد يعلم ماهية الشئ ولا يعلم وجوده ، وأنَّ الوجود مشترك بين الموجودات وماهية كل شئ مختصة به .

ومَن تدبر تبيَّن له حقيقة الأمر فإنَّا قد قدمنا الفرق بين الوجود العلمى والعينى . وهذا الفرق ثابت فى الوجود والعين والثبوت والماهية وغير ذلك . فثبوت هذه الأمور فى العلم والكتاب والكلام ليس هو ثبوتها فى الخارج عن ذلك [2] وهو ثبوت حقيقتها وماهيتها التى هى هى ، والإنسان إذا تصوَّر ماهية فقد علم وجودها الذهنى ، ولا يلزم من ذلك الوجود الحقيقى الخارجى . فقول القائل :

---

(١) النحل : ٤٠ (٢) أى الخارج عن الأمور الثلاثة المذكورة .

قد تصورتُ حقيقة الشئ وعينه ونفسه وماهيته وما علمتُ وجوده حصل وجوده العلمى ، وما حصل وجوده العينى الحقيقى ولم يعلم ماهيته الحقيقية ولا عينه الحقيقية ولا نفسه الحقيقية الخارجية فلا فرق بين لفظ وجوده ولفظ ماهيته إلا أنَّ أحد اللفظين قد يُعبَّر به عن الذهنى والآخر عن الخارجى ، فجاء الفرق من جهة المحل لا من جهة الماهية والوجود .

وأما قولهم : إنَّ الوجود مشترك والحقيقة لا اشتراك فيها - فالقول فيه كذلك - فإنَّ الوجود المعين الموجود فى الخارج لا اشتراك فيه ، كما إنَّ الحقيقة المعينة الموجودة فى الخارج لا اشتراك فيها . وإنما العلم يدرك الوجود المشترك كما يدرك الماهية المشتركة ، فالمشترك ثبوته فى الذهن لا فى الخارج ، وما فى الخارج ليس فيه اشتراك ألبتة ، والذهن إن أدرك الماهية المعيَّنة الموجودة فى الخارج لم يكن فيها اشتراك ، وإنما الاشتراك فيما يدركه من الأمور المطلقة العامة وليس فى الخارج شئ مطلق عام يوصف بالإطلاق والعموم (؟) وإنما فيه المطلق لا بشرط الإطلاق وذلك لا يوجد فى الخارج إلا معيَّناً ، فينبغى للعاقل أن يفرِّق بين ثبوت الشئ ووجوده فى نفسه ، وبين ثبوته ووجوده فى العلم ، فإنَّ ذاك هو الوجود العينى الخارجى الحقيقى ، وأما هذا فيقال له الوجود الذهنى والعلمى . وما من شئ إلا له هذان الثبوتان ، والعلم يُعبَّر عنه باللفظ ، ويُكتب اللفظ بالخط ، فيصير لكل شئ أربعة مراتب : وجود فى الأعيان ، ووجود فى الأذهان ، ووجود فى اللسان ، ووجود فى البنان ، وجود عينى ، وعلمى ، ولفظى ، ورسمى

● ذكر اللّه جميع المخلوقات بوجودها العينى عموماً ثم خصوصاً فى سورة العَلَق :

ولهذا كان أول ما أنزل اللّه على نبيه سورة ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ ذكر فيه نوعين فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ (١) ، فذكر جميع المخلوقات بوجودها العينى عموماً ثم خصوصاً ،

(١) العلق : ١ - ٢

فَخَص الإنسان بالخلق بعد ما عَمَّ غيره ، ثم قال : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [1] فخَصَّ التعليم للإنسان بعد تعميم التعليم بالقلم ، وذكر القلم لأنَّ التعليم بالقلم هو الخط وهو مستلزم لتعليم اللفظ ، فإنَّ الخط يطابقه ، وتعليم اللفظ هو البيان وهو مستلزم لتعليم العلم ، لأنَّ العبارة تطابق المعنى ، فصار تعليمه بالقلم مستلزماً للمراتب الثلاث : اللفظى ، والعلمى ، والرسمى ، بخلاف ما لو أطلق التعليم ، أو ذكر العلم فقط ، لم يكن ذلك مستوعباً للمراتب .

فذكر فى هذه السورة الوجود العينى والعلمى وأنَّ اللّه سبحانه هو معطيهما فهو خالق الخلق وخالق الإنسان ، وهو المعلِّم بالقلم ومعلِّم الإنسان .

فأما إثبات وجود الشئ فى الخارج قبل وجوده ، فهذا أمر معلوم الفساد بالعقل والسمع ، وهو مخالف للكتاب والسُنَّة والإجماع .

* * *

فصل

فى أن الأصل الثانى لمذهب ابن عربى : وجود الخلق نفس وجود الحق

هذا أحد أصلى ابن عربى . وأما الأصل الآخر فقولهم : إنَّ وجود الأعيان نفس وجود الحق وعينه . وهذا انفردوا به عن جميع مثبتة الصانع من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس والمشركين ، وإنما هو حقيقه قول فرعون والقرامطة [2] المنكرين لوجود الصانع كما سنبينه إن شاء اللّه .

---

(١) العلق : ٣ - ٥

(٢) للتعريف بالقرامطة انظر جـ ١ هامش ص ٧٥ ، ١٧٢ (البلتاجى) .

فَخَص الإنسان بالخلق بعد ما عَمَّ غيره ، ثم قال : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [1] فخَصَّ التعليم للإنسان بعد تعميم التعليم بالقلم ، وذكر القلم لأنَّ التعليم بالقلم هو الخط وهو مستلزم لتعليم اللفظ ، فإنَّ الخط يطابقه ، وتعليم اللفظ هو البيان وهو مستلزم لتعليم العلم ، لأنَّ العبارة تطابق المعنى ، فصار تعليمه بالقلم مستلزماً للمراتب الثلاث : اللفظى ، والعلمى ، والرسمى ، بخلاف ما لو أطلق التعليم ، أو ذكر العلم فقط ، لم يكن ذلك مستوعباً للمراتب .

فذكر فى هذه السورة الوجود العينى والعلمى وأنَّ اللّه سبحانه هو معطيهما فهو خالق الخلق وخالق الإنسان ، وهو المعلِّم بالقلم ومعلِّم الإنسان .

فأما إثبات وجود الشئ فى الخارج قبل وجوده ، فهذا أمر معلوم الفساد بالعقل والسمع ، وهو مخالف للكتاب والسُنَّة والإجماع .

* * *

فصل

فى أن الأصل الثانى لمذهب ابن عربى : وجود الخلق نفس وجود الحق

هذا أحد أصلى ابن عربى . وأما الأصل الآخر فقولهم : إنَّ وجود الأعيان نفس وجود الحق وعينه . وهذا انفردوا به عن جميع مثبتة الصانع من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس والمشركين ، وإنما هو حقيقه قول فرعون والقرامطة [2] المنكرين لوجود الصانع كما سنبينه إن شاء اللّه .

---

(١) العلق : ٣ - ٥

(٢) للتعريف بالقرامطة انظر جـ ١ هامش ص ٧٥ ، ١٧٢ (البلتاجى) .

فمَن فهم هذا فهم جميع كلام ابن عربى نظمه ونثره [1] وما يدعيه من أنَّ الحق يغتذى بالخلق ، لأن وجود الأعيان معتمد بالأعيان الثابتة فى العدم ، ولهذا يقول بالجمع من حيث الوجود ، وبالفرق من حيث الماهية والأعيان ، ويزعم أنَّ هذا هو سر القَدَر ، لأنَّ الماهيات لا تقبل إلا ما هو ثابت لها فى العدم فى أنفسها ، فهى التى أحسنت وأساءت ، وحمدت وذمت ، والحق لم يعطها شيئاً إلا ما كانت عليه فى حال العدم .

فتدبر كلامه كيف انتظم شيئين : إنكار وجود الحق ، وإنكار خلقه لمخلوقاته ، فهو منكر للرب الذى خلق ، فلا يقر برب ولا بخلق ، ومنكر لرب العالمين ، فلا رب ولا عالمون مربوبون ، إذ ليس إلا أعيان ثابتة ووجود قائم بها ، فلا الأعيان مربوبة ولا الوجود مربوب ، ولا الأعيان مخلوقة ولا الوجود مخلوق . وهذا يفرِّق بين المظاهر والظاهر والمجلى والمتجلى ، لأن المظاهر عنده هى الأعيان الثابتة فى العدم ، وأما الظاهر فهو وجود الخلق

* * *

فصل

فى مذهب الصدر الرومى وما خالف فيه ابن عربى

وأما صاحبه الصدر الفخر الرومى [2] فإنه لا يقول إنَّ الوجود زائد على الماهية ، فإنه كان أدخل فى النظر والكلام من شيخه ، لكنه أكفر وأقل علماً

---

(١) هذا بمعنى قول شيخنا : إنَّ لكلام ابن عربى مفتاحاً مَن عرفه فهم جميع كلامه فأنا أقرأ الفتوحات كما أقرأ تاريخ ابن الأثير . وقال أيضاً : إنما أبهم هؤلاء الصوفية مذهبهم بالاصطلاحات التى تشبه الألغاز تقية وهرباً من تكفير الجمهور لهم .

(٢) الصدر الرومى : هو محمد بن إسحاق القونوى ، صدر الدين الرومى ، الصوفى ، صاحب ابن عربى وابن زوجته ، ولد بقونية عام ٦١٢ هـ ، أخذ عن ابن عربى الذى كان زوجا لأمه ، وجرت وبينه وبين نصرالطوسى مكاتبات فى مسائل فلسفية ، له « إعجاز البيان فى تفسير أم القرآن » =

فمَن فهم هذا فهم جميع كلام ابن عربى نظمه ونثره [1] وما يدعيه من أنَّ الحق يغتذى بالخلق ، لأن وجود الأعيان معتمد بالأعيان الثابتة فى العدم ، ولهذا يقول بالجمع من حيث الوجود ، وبالفرق من حيث الماهية والأعيان ، ويزعم أنَّ هذا هو سر القَدَر ، لأنَّ الماهيات لا تقبل إلا ما هو ثابت لها فى العدم فى أنفسها ، فهى التى أحسنت وأساءت ، وحمدت وذمت ، والحق لم يعطها شيئاً إلا ما كانت عليه فى حال العدم .

فتدبر كلامه كيف انتظم شيئين : إنكار وجود الحق ، وإنكار خلقه لمخلوقاته ، فهو منكر للرب الذى خلق ، فلا يقر برب ولا بخلق ، ومنكر لرب العالمين ، فلا رب ولا عالمون مربوبون ، إذ ليس إلا أعيان ثابتة ووجود قائم بها ، فلا الأعيان مربوبة ولا الوجود مربوب ، ولا الأعيان مخلوقة ولا الوجود مخلوق . وهذا يفرِّق بين المظاهر والظاهر والمجلى والمتجلى ، لأن المظاهر عنده هى الأعيان الثابتة فى العدم ، وأما الظاهر فهو وجود الخلق

* * *

فصل

فى مذهب الصدر الرومى وما خالف فيه ابن عربى

وأما صاحبه الصدر الفخر الرومى [2] فإنه لا يقول إنَّ الوجود زائد على الماهية ، فإنه كان أدخل فى النظر والكلام من شيخه ، لكنه أكفر وأقل علماً

---

(١) هذا بمعنى قول شيخنا : إنَّ لكلام ابن عربى مفتاحاً مَن عرفه فهم جميع كلامه فأنا أقرأ الفتوحات كما أقرأ تاريخ ابن الأثير . وقال أيضاً : إنما أبهم هؤلاء الصوفية مذهبهم بالاصطلاحات التى تشبه الألغاز تقية وهرباً من تكفير الجمهور لهم .

(٢) الصدر الرومى : هو محمد بن إسحاق القونوى ، صدر الدين الرومى ، الصوفى ، صاحب ابن عربى وابن زوجته ، ولد بقونية عام ٦١٢ هـ ، أخذ عن ابن عربى الذى كان زوجا لأمه ، وجرت وبينه وبين نصرالطوسى مكاتبات فى مسائل فلسفية ، له « إعجاز البيان فى تفسير أم القرآن » =

وإيماناً ، وأقل معرفة بالإسلام وكلام المشايخ . ولما كان مذهبهم كفراً كان كل مَن حذق فيه كان أكفر ، فلما رأى أنَّ التفريق بين وجود الأشياء وأعيانها لا يستقيم ، وعنده أنَّ اللّه هو الوجود ، ولا بد من فرق بين هذا وهذا ، فرق بين المطلق والمعين، فعنده أنَّ اللّه هو الوجود المطلق الذى لا يتعين ولا يتميز ، وأنه إذا تعين وتميز فهو الحق سواء تعين فى مرتبة الإلهية أو غيرها . وهذا القول قد صرَّح فيه بالكفر أكثر من الأول ، وهو حقيقة مذهب فرعون والقرامطة ، وإن كان الأول أفسد من جهة تفرقته بين وجود الأشياء وثبوتها ، وذلك أنه على القول الأول يمكن أن يجعل للحق وجوداً خارجاً عن أعيان الممكنات ، وأنه فاض عليها فيكون فيه اعتراف بوجود الرب القائم بنفسه الغنى عن خلقه ، وإن كان فيه كفر من جهة أنه جعل المخلوق هو الخالق ، والمربوب هو الرب ، بل لم يثبت خلقاً أصلاً ، ومع هذا فما رأيته صرَّح بوجود الرب متميزاً عن الوجود القائم بأعيان الممكنات .

وأما هذا .. فقد صرَّح بأنه ما ثَمَّ سوى الوجود المطلق السارى فى الموجودات المعيَّنة . والمطلق ليس له وجود مطلق ، فما فى الخارج جسم مطلق بشرط الإطلاق ، ولا إنسان مطلق ولا حيوان مطلق بشرط الإطلاق ، بل لا يوجد إلا فى شئ معين ، والحقائق لها ثلاث اعتبارات : اعتبار العموم ، والخصوص ، والإطلاق ، فإذا قلنا : حيوان عام ، أو إنسان عام ، أو جسم عام ، ووجود عام ، فهذا لا يكون إلا فى العلم واللسان ، وأما الخارج عن ذلك فما ثَمَّ شئ موجود فى الخارج يعم شيئين ، ولهذا كان العموم من عوارض صفات الحى فيقال : علم عام ، وإرادة عامة ، وغضب عام ، وخبر عام ، وأمر عام ، ويوصف صاحب

= - أى الفاتحة ، إلى جانب مؤلفات أخر ، ومات بقونية عام ٦٧٢ هـ ، وأوصى بأن يُنقل تابوته إلى دمشق ليدفن عند ابن عربى شيخه فلم يتفق ، وكان كثير الإنكار عليه - وإن كان على مذهبه فى وحدة الوجود - إلى أن مات . (البلتاجى) .

(٣ - الرسائل والفتاوى / ٢)

الصفة بالعموم أيضاً كما فى الحديث الذى فى سنن أبى داود أنَّ النبى ﷺ مَرَّ بعلىٍّ وهو يدعو فقال : « يا علىُّ عُمَّ ، فإنَّ فضل العموم على الخصوص كفضل السماء على الأرض » ، وفى الحديث أنه لما نزل قوله : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ (١) عَمَّ وخص . رواه مسلم من حديث موسى بن طلحة عن أبى هريرة ، وتوصف الصفة بالعموم كما فى حديث التشهد : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فإذا قلتم ذلك فقد أصابت كل عبد صالح لله فى السماء والأرض » .

• معانى العموم والخصوص والإطلاق والتقييد :

وأما إطلاق مَن أطلق أنَّ العموم من عوارض الألفاظ فقط ، فليس كذلك إذ معانى الألفاظ القائمة بالقلب أحق بالعموم من الألفاظ . وسائر الصفات : الإرادة والحب والبغض والغضب والرضاء يعرض لها من العموم والخصوص ما يعرض للقول ، وإنما المعانى الخارجة عن الذهن هى الموجودة فى الخارج ، كقولهم : مطر عام ، وخصب عام . هذه التى تنازع الناس : هل وصفها بالعموم حقيقة أو مجاز ؟ على قولين ، أحدهما : مجاز ، لأنَّ كل جزء من أجزاء المطر والخصب لا يقع إلا حيث يقع الآخر فليس هناك عموم ، وقيل : بل حقيقة ، لأنَّ المطر المطلق قد عَمَّ .

وأما الخصوص .. فيعرض لها إذا كانت موجودة فى الخارج ، فإنَّ كل شئ له ذات وعين تختص به ويمتاز بها عن غيره ، أعنى الحقيقة العينية الشخصية التى لا اشتراك فيها ، مثل : هذا الرجل ، وهذه الحبة ، وهذا الدرهم ، وما عرض لها فى الخارج فإنه يعرض لها فى الذهن . فإنَّ تصور الذهنية أوسع من الحقائق الخارجية فإنها تشمل الموجود والمعدوم والممتنع والمقدرات .

---

(١) الشعراء : ٢١٤

وأما الإطلاق .. فيعرض لها إذا كانت فى الذهن بلا ريب ، فإنَّ العقل يتصور انساناً مطلقاً ووجوداً مطلقاً . وأما فى الخارج فهل يُتصور شئ مطلق ؟ هذا فيه قولان - قيل : المطلق له وجود فى الخارج فإنه جزء من المعين ، وقيل : لا وجود له فى الخارج ، إذ ليس فى الخارج إلا معيَّن مقيَّد ، والمطلق الذى يشترك فيه العدد لا يكون جزءاً من المعيَّن الذى لا يشركه فيه .

والتحقيق أنَّ المطلق بلا شرط أصلاً يدخل فيه المقيَّد المعيَّن ، وأما المطلق بشرط الإطلاق فلا يدخل فيه المعيَّن المقيَّد ، وهذا كما يقول الفقهاء : الماء المطلق ، فإنه بشرط الإطلاق فلا يدخل فيه المضاف . فإذا قلنا : الماء ينقسم إلى ثلاثة أقسام : طهور ، وطاهر ، ونجس ، فالثلاثة أقسام الماء . الطهور هو الماء المطلق الذى لا يدخل ما ليس بطهور كالعصارات والمياه النجسة . فالماء المقسوم هو المطلق لا بشرط ، والماء الذى هو قسيم للمائين هو المطلق بشرط الإطلاق .

لكن هذا الإطلاق والتقييد الذى قاله الفقهاء فى اسم الماء إنما هو فى الإطلاق والتقييد اللفظى ، وهو ما دخل فى اللفظ المطلق كلفظ : ماء ، أو فى اللفظ المقيَّد كلفظ : ماء نجس ، أو ماء ورد .

وأما ما كان كلامنا فيه أولاً .. فإنه الإطلاق والتقييد فى معانى اللفظ ، ففرق بين النوعين . فإنَّ الناس يغلطون لعدم التفريق بين هذين غلطاً كثيراً جداً ، وذلك أنَّ كل اسم ، فإما أن يكون مسماه معيناً لا يقبل الشركة : كأنا ، وهذا ، وزيد ، ويقال له المعيَّن والجزء ، وإما أن يقبل الشركة ، فهذا الذى يقبل الشركة هو المعنى الكلى المطلق وله ثلاث اعتبارات كما تقدم .

• المطلق والمقيَّد فى اللَّفظ أو المعنى :

وأما اللفظ المطلق والمقيد .. فمثال : « تحرير رقبة » ، و « لم تجدوا ماءً » ، وذلك أنَّ المعنى قد يدخل فى مطلق اللفظ ، ولا يدخل فى اللفظ المطلق ، أى يدخل فى اللفظ لا بشرط الإطلاق ، ولا يدخل فى اللفظ بشرط الإطلاق ،

كما قلنا فى لفظ الماء ، وأنَّ الماء يقال على المنى وغيره كما قال : ﴿ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ (١) ، ويقال : ماء الورد ، لكن هذا لا يدخل فى الماء عند الإطلاق لكن عند التقييد . فإذا أخذ القدر المشترك بين لفظ الماء المطلق ولفظ الماء المقيد فهو المطلق بلا شرط الإطلاق ، فيقال : الماء ينقسم إلى مطلق ومضاف ، ومورد التقسيم ليس له اسم مطلق لكن بالقرينة يقتضى الشمول والعموم ، وهو قولنا : الماء ثلاثة أقسام . فهنا أيضاً ثلاثة أشياء : مورد التقسيم - وهو الماء العام وهو المطلق بلا شرط ، لكن ليس له لفظ مفرد إلا لفظ مؤلف ، والقسم المطلق - وهو اللفظ بشرط إطلاقه ، والثانى المقيد - وهو اللفظ بشرط تقييده .

• الفرق بين اللَّفظ والمعنى فى الإطلاق والتقييد :

وإنما كان كذلك لأنَّ المتكلم باللفظ إما أن يطلقه أو يقيده ، ليس له حال ثالثة ، فإذا أطلقه كان له مفهوم ، وإذا قيَّده كان له مفهوم ، ثم إذا قيَّده إما أن يقيده بقيد العموم أو بقيد الخصوص . فقيد العموم كقوله : الماء ثلاثة أقسام ، وقيد الخصوص كقوله : ماء الورد .

وإذا عُرِفَ الفرق بين تقييد اللفظ وإطلاقه وبين تقييد المعنى وإطلاقه ، عُرِفَ أنَّ المعنى له ثلاثة أحوال : إما أن يكون أيضاً مطلقاً ، أو مقيَّداً بقيد العموم ، أو مقيَّداً بقيد الخصوص ، والمطلق من المعانى نوعان : مطلق بشرط الإطلاق ، ومطلق لا بشرط ، وكذلك الألفاظ المطلق منها قد يكون مطلقاً بشرط الإطلاق كقولنا : الماء المطلق ، والرقبة المطلقة ، وقد يكون مطلقاً لا بشرط الإطلاق ، كقولنا : إنسان .

فالمطلق المقيَّد بالإطلاق لا يدخل فيه المقيَّد بما ينافى الإطلاق ، فلا يدخل ماء الورد فى الماء المطلق . وأما المطلق لا بقيد فيدخل فيه المقيد كما يدخل الإنسان الناقص فى اسم الإنسان .

---

(١) الطارق : ٦

فقد تبيَّن أنَّ المطلق بشرط الإطلاق من المعانى ليس له وجود فى الخارج ، فليس فى الخارج إنسان مطلق ، بل لا بد أن يتعين بهذا أو ذاك ، وليس فيه حيوان مطلق ، وليس فيه مطر مطلق بشرط الإطلاق .

وأما المطلق بشرط الإطلاق من الألفاظ - كالماء المطلق - فمسماه موجود فى الخارج ، لأنَّ شرط الإطلاق هنا فى اللفظ فلا يمنع أن يكون معناه معيناً ، وبشرط الإطلاق هناك فى المعنى ، والمسمى المطلق بشرط الإطلاق لا يُتصور إذ لكل موجود حقيقة يتميز بها ، وما لا حقيقة له يتميز بها ليس بشئ ، وإذا كان له حقيقة يتميز بها فتمييزه يمنع أن يكون مطلقاً من كل وجه ، فإنَّ المطلق من كل وجه لا تمييز له ، فليس لنا موجود هو مطلق بشرط الإطلاق ، ولكن العدم المحض قد يُقال هو مطلق بشرط الإطلاق ، إذ ليس هناك حقيقة تتميز ولا ذات تتحقق حتى يقال : تلك الحقيقة تمنع غيرها بحدها أن تكون إياها ، وأما المطلق من المعانى لا بشرط .. فهذا إذا قيل بوجوده فى الخارج فإنما يوجد معيناً متميزاً مخصوصاً ، والمعين المخصوص يدخل فى المطلق لا بشرط ولا يدخل فى المطلق بشرط الإطلاق ، إذ المطلق لا بشرط أعم ، ولا يلزم إذا كان المطلق بلا شرط موجوداً فى الخارج أن يكون المطلق المشروط بالإطلاق موجوداً فى الخارج لأنَّ هذا أخص منه ، فإذا قلنا : حيوان ، أو إنسان ، أو جسم ، أو وجود مطلق ، فإن عنينا به « المطلق بشرط الإطلاق » فلا وجود له فى الخارج ، وإن عنينا « المطلق لا بشرط » فلا يوجد إلا معيناً مخصوصاً ، فليس فى الخارج شئ إلا معين متميز منفصل عما سواه بحده وحقيقته .

فمَن قال : إنَّ وجود الحق هو الوجود المطلق دون المعين فحقيقة قوله إنه ليس للحق وجود أصلاً ولا ثبوت إلا نفس الأشياء المعينة المتميزة ، والأشياء المعينة ليست إياه فليس شيئاً أصلاً .

● الحق ليس له وجود معيَّن ، بل هو كالكلى فى الجزئى :

وتلخيص النكتة : إنه لو عنى به المطلق بشرط الإطلاق فلا وجود له فى الخارج فلا يكون للحق وجود أصلاً ، وإن عنى به المطلق بلا شرط ، فإن قيل بعدم وجوده فى الخارج فلا كلام ، وإن قيل بوجوده فلا يوجد إلا معيناً فلا يكون للحق وجود إلا وجود الأعيان . فيلزم محذوران - أحدهما : أنه ليس للحق وجود سوى وجود المخلوقات ، والثانى : التناقض ، وهو قوله : إنه الوجود المطلق دون المعين .

فتدبر قول هذا فإنه يجعل الحق فى الكائنات بمنزلة الكلى فى جزئياته ومنزلة الجنس والنوع والخاصة والفصل فى سائر أعيانه الموجودة الثابتة فى العدم . وصاحب هذا القول يجعل المظاهر والمراتب فى المتعينات كما جعله الأول فى الأعيان .

* * *

فصل

فى أنَّ مذهب التلمسانى فى الوحدة مخالف لابن عربى والرومى

وأما التلمسانى [1] ونحوه .. فلا يفرِّق بين ماهية ووجود ، ولا بين مطلق ومعين ، بل عنده ما ثَمَّ سوى ، ولا غير بوجه من الوجوه ، وإنما الكائنات أجزاء منه وأبعاض له بمنزلة أمواج البحر فى البحر ، وآخر البيت من البيت ، فمن شِعرهم :

---

(١) التلمسانى : هو عفيف الدين سليمان بن على بن عبد الله بن على بن يس ، ولد فى تلمسان عام ٦١٦ هـ ، وقدم إلى الشام مبكراً ، وشغل أحياناً بعض مناصبها ، ولكنه كثيراً ما بقى من غير عمل ، وقد زعم عفيف الدين أنه التمس الخلوة فى آسيا الصغرى أربعين مرة ، كل مرة أربعين يوماً من غير انقطاع - ويشكك الذهبى فى هذه الرواية لأن أيام خلوته تبلغ قياساً على ذلك ١٦٠٠ يوم !! =

● الحق ليس له وجود معيَّن ، بل هو كالكلى فى الجزئى :

وتلخيص النكتة : إنه لو عنى به المطلق بشرط الإطلاق فلا وجود له فى الخارج فلا يكون للحق وجود أصلاً ، وإن عنى به المطلق بلا شرط ، فإن قيل بعدم وجوده فى الخارج فلا كلام ، وإن قيل بوجوده فلا يوجد إلا معيناً فلا يكون للحق وجود إلا وجود الأعيان . فيلزم محذوران - أحدهما : أنه ليس للحق وجود سوى وجود المخلوقات ، والثانى : التناقض ، وهو قوله : إنه الوجود المطلق دون المعين .

فتدبر قول هذا فإنه يجعل الحق فى الكائنات بمنزلة الكلى فى جزئياته ومنزلة الجنس والنوع والخاصة والفصل فى سائر أعيانه الموجودة الثابتة فى العدم . وصاحب هذا القول يجعل المظاهر والمراتب فى المتعينات كما جعله الأول فى الأعيان .

* * *

فصل

فى أنَّ مذهب التلمسانى فى الوحدة مخالف لابن عربى والرومى

وأما التلمسانى [1] ونحوه .. فلا يفرِّق بين ماهية ووجود ، ولا بين مطلق ومعين ، بل عنده ما ثَمَّ سوى ، ولا غير بوجه من الوجوه ، وإنما الكائنات أجزاء منه وأبعاض له بمنزلة أمواج البحر فى البحر ، وآخر البيت من البيت ، فمن شِعرهم :

---

(١) التلمسانى : هو عفيف الدين سليمان بن على بن عبد الله بن على بن يس ، ولد فى تلمسان عام ٦١٦ هـ ، وقدم إلى الشام مبكراً ، وشغل أحياناً بعض مناصبها ، ولكنه كثيراً ما بقى من غير عمل ، وقد زعم عفيف الدين أنه التمس الخلوة فى آسيا الصغرى أربعين مرة ، كل مرة أربعين يوماً من غير انقطاع - ويشكك الذهبى فى هذه الرواية لأن أيام خلوته تبلغ قياساً على ذلك ١٦٠٠ يوم !! =

البحـــر لا شك عندى فى توحده وإن تعـــدَّد بالأمـــــواج والزبد

فلا يغرنك ما شاهدتَ من صور فالواحد الرب سارى العين فى العدد

ومنه :

فما البحر إلا الموج لا شيء غيره وإن فرَّقته كثـــرة المتعــــدد

ولا ريب أنَّ هذا القول هو أحذق فى الكفر والزندقة ، فإنَّ التمييز بين الوجود والماهية ، وجعل المعدوم شيئاً أو التمييز فى الخارج بين المطلق والمعين ، وجعل المطلق شيئاً وراء المعينات فى الذهن قولان ضعيفان باطلان ؛ وقد عرف مَن حدَّد

= وأشرف التلمسانى زمناً على جباية المكوس ، فلما قدم الأسعد إلى دمشق فى حاشية السلطان المنصور قلاوون طلب إليه أن يقدم بياناً بما فى ذمته ، وكرر الأسعد الطلب فلم يفز بطائل ، فعنف عفيف الدين ، وتميز عفيف الدين من الغيظ وهم بالاحتجاج لدى السلطان على مخالفته الشريعة بتوليته قبطياً أمر المسلمين ، فطيَّب خاطره آخر الأمر ، والغالب أنه لم يقدم البيان الذى طُلِب منه !!

كان عفيف الدين تلميذاً وفياً لابن عربى ، واعتنق مثله نظرية وحدة الوجود ، ويُروى أنه مَرَّ والشيرازى على كلب أجرب ميت بالطريق عند دار الطعم ، فقال الشيرازى له : هذا - يشير إلى جثة الكلب الميت الأجرب - أيضاً هو ذات الله ؟ فقال : « وهل ثَمَّ شئ خارج عنها ، نعم .. الجميع ذاته » !! .

وأثر عنه قوله : « القرآن كله شرك ليس فيه توحيد ، وإنما التوحيد فى كلامنا نحن » !!

وبالرغم من أنه كانت تبدو على التلمسانى سمات من الوقار ، إلا أنه كان أبداً موضع الريبة - كما يقول الذهبى - لأنَّ أحداً لم يكن يعرف حقيقة آرائه ، بل لقد اتهم بأنه من النصيرية ، والعجيب أنَّ شعره كان بليغاً سهلاً عذباً ، ولكنه كان يخفى السم - كما يقول كُتَّاب سيرته - وجُمِعت أشعاره فى ديوان ، ومن هذا الديوان نسخ بمكتبات المتحف البريطانى ، ومكتبة وزارة الهند ، وبودليانا بأكسفورد وفى غيرها .. وقد نسجت أشعاره فى كثير من الأحيان على منوال الأشعار الصوفية التى تخاطب محبوباً متخيلاً ..

وقد أنس قطب الدين اليونينى بصحبته ، ونسب إليه أنه ادعى الوصول إلى مرتبة العِرفان .

وألَّف عفيف الدين - علاوة على ديوانه - كتباً فى علوم شتَّى لم يبق منها فيما يظهر سوى رسالة فى علم العروض ، وينسب له الذهبى زيادة على ذلك « شرح الأسماء الحسنى » ، و « شرح مقامات النفزى » ، و « شرح فصوص الحكم لابن عربى » ، وتدلنا عناوين هذه المؤلفات على شيوخه .

توفى عفيف الدين التلمسانى بدمشق فى الخامس من رجب سنة ٦٩٠ هـ ، ودفن بجبانة هذه المدينة - (وانظر جـ ١ هامش ص ١١٢ من هذا الكتاب) (البلتاجى) .

النظر أن مَن جعل فى هذه الأمور الموجودة فى الخارج شيئين - أحدهما : وجودها ، والثانى : ذواتها ، أو جعل لها حقيقة مطلقة موجودة زائدة على عينها الموجودة فقد غلط غلطاً قوياً ، واشتبه عليه ما يأخذه من العقل من المعانى المجرَّدة المطلقة عن التعيين ، ومن الماهيات المجرَّدة عن الوجود الخارجى بما هو موجود فى الخارج من ذلك ، ولم يدر أنَّ متصورات العقل ومقدَّراته أوسع مما هو موجود حاصل بذاته ، كما يتصور المعدومات والممتنعات والمشروطات ، وبقدر ما لا وجود له ألبتة مما يمكن أو لا يمكن ، ويأخذ من المعينات صفات مطلقة فيه . فإنَّ الموجودات ذوات متصورة فيه ، لكن هذا القول أشد جهلاً وكفراً باللّه تعالى ، فإنَّ صاحبه لا يفرِّق بين المظاهر والظاهر ، ولا يجعل الكثرة والتفرقة إلا فى ذهن الإنسان لما كان محجوباً عن شهود الحقيقة ، فلما انكشف غطاؤه عاين أنه لم يكن غير ، وأنَّ الرائى عين المرئى ، والشاهد عين المشهود .

* * *

فصل

فى أنَّ الحلول والاتحاد أربعة أقسام

واعلم أنَّ هذه المقالات لا أعرفها لأحد من أمة قبل هؤلاء على هذا الوجه ، ولكن رأيتُ فى بعض كتب الفلسفة المنقولة عن أرسطو [1] أنه حكى عن بعض الفلاسفة قوله : إنَّ الوجود واحد ورد ذلك ، وحسبك بمذهب لا يرضاه متكلمة الصابئين .

---

(١) أرسطو : (٣٨٤ - ٣٢٢ ق . م) ، مربى الإسكندر الأكبر ، وتلميذ أفلاطون ، فيلسوف يونانى من كبار مفكرى البشرية ، تأثرت بوادر التفكير العربى بتآليفه التى نقلها إلى العربية النقلة السريان وأهمهم إسحاق بن حنين ، مؤسس مذهب « فلسفة المشّائين » . مؤلفاته فى المنطق والطبيعيات والإلهيات والأخلاق ، أهمها « المقولات » ، « الجدل » ، « الخطابة » ، « كتاب ما بعد الطبيعة » ، « السياسة » ، « النفس » (البلتاجى) .

النظر أن مَن جعل فى هذه الأمور الموجودة فى الخارج شيئين - أحدهما : وجودها ، والثانى : ذواتها ، أو جعل لها حقيقة مطلقة موجودة زائدة على عينها الموجودة فقد غلط غلطاً قوياً ، واشتبه عليه ما يأخذه من العقل من المعانى المجرَّدة المطلقة عن التعيين ، ومن الماهيات المجرَّدة عن الوجود الخارجى بما هو موجود فى الخارج من ذلك ، ولم يدر أنَّ متصورات العقل ومقدَّراته أوسع مما هو موجود حاصل بذاته ، كما يتصور المعدومات والممتنعات والمشروطات ، وبقدر ما لا وجود له ألبتة مما يمكن أو لا يمكن ، ويأخذ من المعينات صفات مطلقة فيه . فإنَّ الموجودات ذوات متصورة فيه ، لكن هذا القول أشد جهلاً وكفراً باللّه تعالى ، فإنَّ صاحبه لا يفرِّق بين المظاهر والظاهر ، ولا يجعل الكثرة والتفرقة إلا فى ذهن الإنسان لما كان محجوباً عن شهود الحقيقة ، فلما انكشف غطاؤه عاين أنه لم يكن غير ، وأنَّ الرائى عين المرئى ، والشاهد عين المشهود .

* * *

فصل

فى أنَّ الحلول والاتحاد أربعة أقسام

واعلم أنَّ هذه المقالات لا أعرفها لأحد من أمة قبل هؤلاء على هذا الوجه ، ولكن رأيتُ فى بعض كتب الفلسفة المنقولة عن أرسطو [1] أنه حكى عن بعض الفلاسفة قوله : إنَّ الوجود واحد ورد ذلك ، وحسبك بمذهب لا يرضاه متكلمة الصابئين .

---

(١) أرسطو : (٣٨٤ - ٣٢٢ ق . م) ، مربى الإسكندر الأكبر ، وتلميذ أفلاطون ، فيلسوف يونانى من كبار مفكرى البشرية ، تأثرت بوادر التفكير العربى بتآليفه التى نقلها إلى العربية النقلة السريان وأهمهم إسحاق بن حنين ، مؤسس مذهب « فلسفة المشّائين » . مؤلفاته فى المنطق والطبيعيات والإلهيات والأخلاق ، أهمها « المقولات » ، « الجدل » ، « الخطابة » ، « كتاب ما بعد الطبيعة » ، « السياسة » ، « النفس » (البلتاجى) .

وإنما حدثت هذه المقالات بحدوث دولة التتار ، وإنما كان الكفر الحلول العام أو الاتحاد أو الحلول الخاص . وذلك أنَّ القسمة رباعية لأنَّ مَن جعل الرب هو العبد حقيقة ، فإما أن يقول بحلوله فيه ، أو اتحاده به ، وعلى التقديرين : فإما أن يجعل ذلك مختصاً ببعض الخلق كالمسيح ، أو يجعله عاماً لجميع الخلق . فهذه أربعة أقسام :

الأول : هو الحلول الخاص - وهو قول النسطورية [١] من النصارى ونحوهم ممن يقول : إنَّ اللاهوت حَلَّ فى الناسوت وتدرع به كحلول الماء فى الإناء ، وهؤلاء حققوا كفر النصارى بسبب مخالطتهم للمسلمين ، وكان أولهم فى زمن المأمون . وهذا قول مَن وافق هؤلاء النصارى من غالية هذه الأمة ، كغالية الرافضة [٢] الذين يقولون : إنه حُلَّ بعلىٍّ بن أبى طالب وأئمة أهل بيته ، وغالية النُسَّاك الذين يقولون بالحلول فى الأولياء ومَن يعتقدون فيه الولاية ، أو فى بعضهم كالحلاج ويونس والحاكم ونحو هؤلاء [٣] .

---

(١) للتعريف بالنسطورية انظر جـ ١هامش ص ٢١٩

(٢) للتعريف بالرافضة انظر جـ ١ هامش ص ٩١ ، ٢١٣

(٣) الحلاج : الحسين بن منصور، توفى سنة ٣٠٩ هـ ، ولد فى الطور قرب البيضاء (فارس) ، وتوفى فى بغداد ، فيلسوف صوفى ، قضى السنوات فى خلوات الصوفية لا سيما مع التسترى والجنيد ، ثم طاف البلدان واعياً إلى الزهد ، اتهم بالزندقة والقول بالحلول فحُكِم عليه وسُجِن ثمانى سنوات فى بغداد ، ثم عُذِّب وصُلِب بعد أن قُطِّعت أطرافه لادعائه الربوبية ، ولقوله بسقوط الفرائض واستبدالها بقربات وغيرها . ومما حدث فى أثناء محاكمته أن حُكِم على تلميذه أبى العباس أحمد بن عطاء بالموت كذلك لقوله بمقالته ، فضُرِب على رأسه بأمر القاضى حتى نزف الدم من أنفه وفمه فمات .

أنشأ الحلاج مذهباً فى التصوف وأثار حوله الجدل ، فقدَّسه البعض وكفَّره غيرهم ، لم يبق من مؤلفاته باللغة العربية إلا كتاب « الطواسين » .

● أما الحاكم فهو : منصور بن عبد العزيز بن المعز الفاطمى ، ادعى الألوهية ، وكان غدوراً سفاكاً للدماء ، تثير تصرفاته المتناقضة دهشة بالغة تدفع إلى الظن بأنه كان نهب لوثة عقلية جامحة، ولد سنة ٣٧٥ هـ ، ولقى مصرعه سنة ٤١١ هـ على يد عبدين لابن دواس ، تنفيذاً لمؤامرة دبرتها له أخته ست الملك للخلاص منه ، وما زال أتباعه الدروز حتى اليوم ينتظرون رجعته ، إذ يؤمنون بأنه لم يُقتل ، وإنما اختفى وسيعود مرة ثانية . (البلتاجى) .

والثانى : هو الاتحاد الخاص - وهو قول يعقوبية النصارى [١] وهم أخبث قولاً وهم السودان والقبط ، يقولون : إنَّ اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا كاختلاط اللَّبن بالماء ، وهو قول مَن وافق هؤلاء من غالية المنتسبين إلى الإسلام .

والثالث : هو الحلول العام - وهو القول الذى ذكره أئمة أهل السُنَّة والحديث عن طائفة من الجهمية [٢] المتقدمين ، وهو قول غالب متعبدة الجهمية الذين يقولون : إنَّ اللَّه بذاته فى كل مكان ، ويتمسكون بمتشابه القرآن كقوله : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَفِى الأَرْضِ ﴾ [٣] ، وقوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ [٤] والرد على هؤلاء كثير مشهور فى كلام أئمة السُنَّة وأهل المعرفة وعلماء الحديث .

• كفر القائلين بالاتحاد العام أعظم من كفر النصارى :

الرابع : الاتحاد العام - وهو قول هؤلاء الملاحدة الذين يزعمون أنه عين وجود الكائنات ، وهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى من وجهين : من جهة أنَّ أولئك قالوا : إنَّ الرب يتحد بعبده الذى قرَّبه واصطفاه بعد أن لم يكونا متحدين ، وهؤلاء يقولون : ما زال الرب هو العبد وغيره من المخلوقات ليس هو غيره ، والثانى : من جهة أنَّ أولئك خصوا ذلك بمن عظَّموه كالمسيح ، وهؤلا جعلوا ذلك سارياً فى الكلاب والخنازير والقذر والأوساخ ، وإذا كان اللَّه تعالى قال : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ .. الآية [٥] . فكيف بمن قال : إنَّ اللَّه هو الكفار والمنافقون والصبيان والمجانين والأنجاس والأنتان وكل شئ ؟ وإذا كان اللَّه قد رَدَّ قول اليهود والنصارى لما قالوا : ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ اللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [٦] ، وقال لهم : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ،

---

(١) للتعريف باليعقوبية انظر جـ ١ هامش ص ٢١٩

(٢) للتعريف بالجهمية انظر جـ ١ هامش ص ١١٧ ، و جـ ٣ ص ١٢

(٣) الأنعام : ٣ (٤) الحديد : ٤

(٥) المائدة : ١٧ (٦) المائدة : ١٨

بَلْ أَنتمُ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ﴾ ... الآية [1] ، فكيف بمن يزعم أنَّ اليهود والنصارى هم أعيان وجود الرب الخالق ليسوا غيره ولا سواه ؟ ولا يُتصور أن يعذب إلا نفسه ؟ وأنَّ كل ناطق فى الكون فهو عين السامع ؟ كما فى قوله ﷺ : « إنَّ اللّه تجاوز لأمتى عما حدَّثت بها أنفسها » ، وأنَّ الناكح عين المنكوح ، حتى قال شاعرهم ..... [2] .

واعلم أنَّ هؤلاء لما كان كفرهم فى قولهم : « إنَّ اللّه هو مخلوقاته كلها » أعظم من كفر النصارى بقولهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [3] فكان النصارى ضُلاَّل أكثرهم لا يعقلون مذهبهم فى التوحيد إذ هو شئ متخيل لا يعلم ولا يُعقل ، حيث يجعلون الرب جوهراً واحداً ثم يجعلونه ثلاثة جواهر ، ويتأوَّلون ذلك بتعدد الخواص والأشكال التى هى الأقانيم ، والخواص عندهم ليست جواهر ، فيتناقضون مع كفرهم ، كذلك هؤلاء الملاحدة الاتحادية ضُلاَّل أكثرهم لا يعقلون قول رؤوسهم ولا يفقهونه ، وهم فى ذلك كالنصارى ، كلما كان الشيخ أحمق وأجهل ، كان باللّه أعرف ، وعندهم أعظم ، ولهم حظ من عبادة الرب الذى كفروا به كما للنصارى . هذا ما دام أحدهم فى الحجاب ، فإذا ارتفع عن قلبه وعرف أنه هو فهو بالخيار بين أن يسقط عن نفسه الأمر والنهى ويبقى سدى يفعل ما أحب ، وبين أن يقوم بمرتبة الأمر والنهى لحفظ المراتب ، وليقتدى به الناس المحجوبون ، وهم غالب الخلق . ويزعمون أنَّ الأنبياء كانوا كذلك إذ عَدُّوهم كاملين .

* * *

---

(١) المائدة : ١٨

(٢) سقط من الأصل هذا الشعر وقد يُعرف مماسبق من أشعارهم .

(٣) المائدة : ١٧

فصل

فى أنَّ مذهب الاتحادية مركَّب من ثلاث مواد وشبههم بالنصارى

مذهب هؤلاء الاتحادية : كابن عربى ، وابن سبعين ، والقونوى ، والتلمسانى [1] مركَّب من ثلاثة مواد : سلب الجهمية وتعطيلهم ، ومجملات الصوفية ، وهو ما يوجد فى كلام بعضهم من الكلمات المجملة المتشابهة ، كما ضلت النصارى بمثل ذلك فيما يروونه عن المسيح فيتبعون المتشابه ويتركون المُحكم . وأيضاً كلمات المغلوبين على عقلهم الذين تكلموا فى حال سُكر ، ومن الزندقة الفلسفة التى هى أصل التجهم ، وكلامهم فى الوجود المطلق والعقول والنفوس والوحى والنبوَّة والوجوب والإمكان ، وما فى ذلك من حق وباطل . فهذه المادة أغلب على ابن سبعين والقونوى ، والثانية أغلب على ابن عربى ، ولهذا هو أقربهم إلى الإسلام ، والكل مشتركون فى التجهم . والتلمسانى أعظمهم تحقيقاً لهذه الزندقة والاتحاد التى انفردوا بها ، وأكفرهم باللّه وكتبه ورسله وشرائعه واليوم الآخر .

---

(١) ابن سبعين : هو أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم الإشبيلى ، فيلسوف صوفى أندلسى ، ولد فى مرسية عام ٦١٧ هـ ، انتهج تصوفاً فلسفياً خاصاً ، وانخرط فى سلك الطريقة الشوذية (نسبة إلى الصوفى الأندلسى عبد اللّه الشوذى) ، واستوعب العلوم الفلسفية ، وتدعو تعاليمه إلى وحدة الوجود ، ويشبه مذهبه فى الحب الإلهى مذهب رابعة العدوية ، ويُلاحَظ على أسلوبه الغموض مما جعل لتأويل كلامه احتمالات عديدة ، من أهم مؤلفاته : « ما لا بد للعارف منه » ، و « جواب صاحب صقلية » - وهى رده على الأسئلة الفلسفية التى وجهها فردريك الثانى إلى علماء سبتة حيث كان يعيش ابن سبعين - بالإضافة إلى « رسالة الإحاطة » و « كتاب الألواح » ، و « الرسالة النورية فى الذكر » ، وبعض الرسائل الأخرى ، مات مسموماً أو منتحراً عام ٦٦٧ هـ عن خمس وخمسين سنة .

(وانظر فى التعريف بالاتحادية جـ ١ هامش ص ٤٢ ، وفى التعريف بابن عربى هامش ص ٩ ، وبالقونوى (الصدر الرومى) هامش ص ٢٣ ، وبالتلمسانى هامش ص ٢٨ من هذا الجزء) .

(البلتاجى)

وبيان ذلك أنه قال : « هو فى كل متجل بوحدته الذاتية ، عالماً بنفسه وبما يصدر عنه ، وأنَّ المعلومات بأسرها كانت منكشفة فى حقيقة العلم شاهداً لها ».

فيقال له : قد أثبت علمه بما يصدر منه وبمعلومات يشهدها غير نفسه ، ثم ذكرتَ أنه عرض نفسه على هذه الحقائق الكونية المشهودة المعدومة ، فعند ذلك عبَّر بـ « أنا » وظهرت حقيقة النبوَّة التى ظهر فيها الحق واضحاً ، وانعكس فيها الوجود المطلق ، وأنه هو المسمى باسم الرحمن كما أنَّ الأول هو المسمى باسم اللّه ، وسُقتَ الكلام . إلى أن قلتَ : « وهو الآن على ما عليه كان » فهذا الذى علم أنه يصدر عنه وكان مشهوداً له معدوماً فى نفسه هو الحق أو غيره ؟ فإن كان الحق ، فقد لزم أن يكون الرب كان معدوماً وأن يكون صادراً عن نفسه ، ثم إنه تناقض ، وإن كان غيره ، فقد جعلتَ ذلك الغير هو مرآة لانعكاس الوجود المطلق ، وهو الرحمن ، فيكون الخلق هو الرحمن ، فأنت حائر بين أن تجعله قد عَلِمَ معدوماً صدر عنه ، فيكون له غير وليس هو الرحمن ، وبين أن تجعل هذا الظاهر الواصف هو إياه وهو الرحمن ، فلا يكون معدوماً ولا صادراً عنه ، وأما أن تصف الشئ بخصائص الحق الخالق تارة ، وبخصائص العبد المخلوق تارة ، فهذا مع تناقضه كفر من أغلظ الكفر ، وهو نظير قول النصارى : اللاهوت الناسوت . لكن هذا أكفر من وجوه متعددة .

* * *

فصل
فى ما كان به الاتحادية أكفر من النصارى

الوجه الأول : أنَّ هذه الحقائق الكونية التى ذكرتَ أنها كانت معدومة فى نفسها مشهودة أعيانها فى علمه فى تجليه المطلق الذى كان فيه متحداً بنفسه بوحدته الذاتية ، هل خلقها وبرأها وجعلها موجودة بعد عدمها ، أم لم تزل معدومة ؟ فإن كانت لم تزل معدومة فيجب أن لا يكون شئ من الكونيات موجوداً ، وهذا مكابرة للحس والعقل والشرع ، ولا يقوله عاقل ، ولم يقله عاقل .

وبيان ذلك أنه قال : « هو فى كل متجل بوحدته الذاتية ، عالماً بنفسه وبما يصدر عنه ، وأنَّ المعلومات بأسرها كانت منكشفة فى حقيقة العلم شاهداً لها ».

فيقال له : قد أثبت علمه بما يصدر منه وبمعلومات يشهدها غير نفسه ، ثم ذكرتَ أنه عرض نفسه على هذه الحقائق الكونية المشهودة المعدومة ، فعند ذلك عبَّر بـ « أنا » وظهرت حقيقة النبوَّة التى ظهر فيها الحق واضحاً ، وانعكس فيها الوجود المطلق ، وأنه هو المسمى باسم الرحمن كما أنَّ الأول هو المسمى باسم اللّه ، وسُقتَ الكلام . إلى أن قلتَ : « وهو الآن على ما عليه كان » فهذا الذى علم أنه يصدر عنه وكان مشهوداً له معدوماً فى نفسه هو الحق أو غيره ؟ فإن كان الحق ، فقد لزم أن يكون الرب كان معدوماً وأن يكون صادراً عن نفسه ، ثم إنه تناقض ، وإن كان غيره ، فقد جعلتَ ذلك الغير هو مرآة لانعكاس الوجود المطلق ، وهو الرحمن ، فيكون الخلق هو الرحمن ، فأنت حائر بين أن تجعله قد عَلِمَ معدوماً صدر عنه ، فيكون له غير وليس هو الرحمن ، وبين أن تجعل هذا الظاهر الواصف هو إياه وهو الرحمن ، فلا يكون معدوماً ولا صادراً عنه ، وأما أن تصف الشئ بخصائص الحق الخالق تارة ، وبخصائص العبد المخلوق تارة ، فهذا مع تناقضه كفر من أغلظ الكفر ، وهو نظير قول النصارى : اللاهوت الناسوت . لكن هذا أكفر من وجوه متعددة .

* * *

فصل
فى ما كان به الاتحادية أكفر من النصارى

الوجه الأول : أنَّ هذه الحقائق الكونية التى ذكرتَ أنها كانت معدومة فى نفسها مشهودة أعيانها فى علمه فى تجليه المطلق الذى كان فيه متحداً بنفسه بوحدته الذاتية ، هل خلقها وبرأها وجعلها موجودة بعد عدمها ، أم لم تزل معدومة ؟ فإن كانت لم تزل معدومة فيجب أن لا يكون شئ من الكونيات موجوداً ، وهذا مكابرة للحس والعقل والشرع ، ولا يقوله عاقل ، ولم يقله عاقل .

وإن كانت صادرة موجودة بعد عدمها امتنع أن تكون هى إياه ، لأنَّ الله لم يكن معدوماً فيوجد . وهذا يُبطل الاتحاد ، ووجب حينئذ أن يكون [1] به موجوداً ليس هو الله ، بل هو خلقه ومماليكه وعبيده . وهذا يُبطِل قولك ! وهو الآن لا شئ معه على ما عليه كان .

الثانى : أنَّ قولك : « تركبت الخلقة الإلهية من كان إلى سر شأنه » [2] ، أو قولك : « ظهر الحق فيه » ... أو نحو ذلك من الألفاظ التى يُطلقها هؤلاء الاتحادية فى هذا الموضع مثل قولهم : ظهر الحق وتجلى ، وهذه مظاهر الحق ومجاليه ، وهذا مظهر إلهى ومجلى إلهى ، ونحو ذلك - أتعنى به أنَّ عين ذاته حصلت هناك ؟ أو تعنى به أنه صار ظاهراً متجلياً لها بحيث تعلمه ؟ أو تعنى به أن ظهر لخلقه بها وتجلى بها وأنه ما ثَمَّ قسم رابع ؟

فإن عنيتَ الأول - وهو قول الاتحادية - فقد صرَّحتَ بأن عين المخلوقات - حتى الكلاب والخنازير والنجاسات والشياطين والكفار - هى ذات الله ، أو هى وذات الله متحدتان ، أو ذات الله حالّة فيها ، وهذا الكفر أعظم من كفر الذين قالوا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [3] ، و ﴿ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ [4] وإنَّ الله يلد ويولد . وإنَّ له بنين وبنات . وإذا صرَّحتَ بهذا عرف المسلمون قولك فألحقوك ببنى جنسك [5] ، فلا حاجة إلى ألفاظ مجملة يحسبها الظمآن ماءً . وياليته إذا جاءها لم يجدها شيئاً ، بل يجدها سماً ناقعاً .

---

(١) كذا فى الأصل ولعله : أن يكون ما صار به المعدوم موجوداً ... إلخ .

(٢) كذا فى الأصل . (٣) المائدة : ١٧ (٤) المائدة : ٧٣

(٥) بهذا صرَّح شيخ الإسلام أنَّ غرضه من هذه الإلزامات الباطلة بيان خروجهم بها عن دائرة الإسلام الذى يُلبِّسون بادعائهم إياه على المسلمين بأنهم من أوليائه العارفين . وليس غرضه أنه ألزمهم ما يلتزمونه ولا يعتقدونه .

وإن عنيتَ أنه صار ظاهراً متجلياً لها ، فهذا حقيقة أمر صار معلوماً لها ، ولا ريب أنَّ اللّه يصير معروفاً لعبده . لكن كلامك فى هذا باطل من وجهين : من جهة أنك جعلته معلوماً للمعدومات التى لا وجود لها لكونه قد علمها ، واعتقدتَ أنها إذا كانت معلومة يجوز أن تصير عالِمة ، وهذا عين الباطل : من جهة أنه إذا علم أنَّ الشئ سيكون لم يجز أن يكون هذا قبل وجوده عالماً قادراً فاعلاً . ومن جهة أنَّ هذا ليس حكم جميع الكائنات المعلومة ، بل بعضها هو الذى يصح منه العلم

وأما إن قلتَ : إنَّ اللّه يعلم لكونها آيات دالة عليه ، فهذا حق ، وهو دين المسلمين وشهود العارفين ، لكنك لم تقل هذا لوجهين :

أحدهما : أنها لا تصير آيات إلا بعد أن يخلقها ويجعلها موجودة ، لا فى حال كونها معدومة معلومة ، وأنت لم تثبت أنه خلقها ولا جعلها موجودة ، ولا أنه أعطى شيئاً خلقه ، بل جعلتَ نفسه هو هى المتجلية له .

الوجه الثانى : أنك قد صرَّحت بأنه تجلى لها وظهر لها ، لا أنه دلَّ بها خلقه وجعلها آيات تكون تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، واللّه قد أخبر فى كتابه أنه يجعل فى هذه المصنوعات آيات ، والآية مثل العلامة والدلالة كما قال : ﴿ وَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) ، وتارة يسميها نفسها آية كما قال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ﴾ (٢) ، وهذا الذى ذكره اللّه فى كتابه هو الحق .

فإذا قيل فى نظير ذلك : تجلى بها وظهر بها كما يقال : علم وعرف بها ، كان المعنى صحيحاً لكن لفظ التجلى والظهور فى مثل هذا الوضع غير مأثور .

---

(١) البقرة : ١٦٣ - ١٦٤ (٢) يس : ٣٣

وفيه إيهام وإجمال . فإنَّ الظهور والتجلى يُفهم منه الظهور والتجلى للعين لا سيما لفظ « المتجلى » ، وأنَّ استعماله فى التجلى للعين هو الغالب . وهذا مذهب الاتحادية ، صرَّح به ابن عربى وقال : فلا تقع العين إلا عليه ..... [1] .

وإذا كان عندهم أنَّ المرئى بالعين هو اللّه ، فهذا كفر صريح باتفاق المسلمين . بل قد ثبت فى صحيح مسلم أنَّ النبى ﷺ قال : « واعلموا أنَّ أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت » ، ولا سيما إذا قيل : ظهر فيها وتجلى ، فإنَّ اللفظ يصير مشتركاً بين أن تكون ذاته فيها أو تكون قد صارت بمنزلة المرآة التى يظهر فيها مثال المرئى ، وكلاهما باطل . فإنَّ ذات اللّه ليست فى المخلوقات ، ولا فى نفس ذاته ترى المخلوقات كما يرى المرئى فى المرآة ، ولكن ظهورها دلالتها عليه وشهادتها له ، وأنها آيات له على نفسه وصفاته سبحانه وبحمده ، كما نطق بذلك كتاب اللّه .

الوجه الثالث : أنَّ مقارنة الألف والنون المعبَّر عنها بـ « أنا » واللفظة التى هى « حقيقة النبوَّة » و « الروح الإضافى » هذه الأشياء داخلة فى مسمى أسمائه الظاهرة والمضمَرة ، أم ليست داخلة فى مسمى أسمائه ؟ فإن كان الأول ، فتكون جميع المخلوقات داخلة فى مسمى أسماء اللّه ، وتكون المخلوقات جزءاً من اللّه وصفة له ، وإن كان الثانى ، فهذه الأشياء معدومة ليس لها وجود فى أنفسها ، فكيف يُتصور أن تكون موجودة لا موجودة ، ثابتة لا ثابتة ، منتفية لا منتفية ؟ وهذا القسم بيِّن ، وهو أحد ما يكشف حقيقة هذا التلبيس .

فإنَّ هذه الأمور التى كانت معلومة له معدومة عند نزول الخلية ظهرت هذه الأمور التى ذكرها ، فهذه الأمور الظاهرة المعلومة بعد هذا النزول قد صارت « أنا » وحقيقة نبوَّة ، وروحاً إضافياً ، وفعل ذات ، ومفعول ذات ، ومعنى وسائط ، فإن كان جميع ذلك فى اللّه ، ففيه كفران عظيمان : كون جميع

---

(١) بياض فى الأصل .

المخلوقات جزءاً من الله ، وكونه متغيراً ، هذه التغيرات هى من نقص إلى كمال ومن كمال إلى نقص ، وإن كانت خارجة من ذاته فهذه الأشياء كانت معدومة ، ولم يخلقها عندهم خارجة عنه ، فكيف يكون الحال ؟

الوجه الرابع : أنَّ عنده حقيقة النبوَّة وما معها ، إما أن يكون شيئاً قائماً بنفسه ، أو صفة له أو لغيره ، فإن كان قائماً بنفسه فإما أن يكون هو الله أو غيره ، فإن كان ذلك هو الله فيكون الله هو النقطة الظاهرة ، وهو حقيقة النبوَّة ، وهو الروح الإضافى ، وقد قال بعد هذا : « إنه جعل الروح الإضافى فى صورة فعل ذاته ، وإنه أعطى محمداً عقدة نبوَّته » ، فيكون قد جعل نفسه صورة فعله وأعطى محمداً ذاته ، وهذا مع أنه من أبين الكفر وأقبحه فهو متناقض ، فمَن المعطِى ومَن المعطَى ؟ إذا كان أعطى ذاته لغيره ، وإن كانت هذه الأشياء أعياناً قائمة بنفسها وهى غير الله فسواء أكانت ملائكة أو غيرها من كل ما سوى الله من الأعيان فهو خلق من خلق الله . مصنوع مربوب ، والله خالق كل شئ ، فهو قد جعل ظهور الحق وصفاً ، وأنه المسمى باسم الرحمن ، فيكون المسمى باسم الرحمن الواصف لنفسه مخلوقاً ، وهذا كفر صريح وهو أعظم من إلحاد الذين : ﴿ قِيلَ لَهُمُ أَسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا الرَّحْمَٰنُ ﴾ ؟ [1] ومن إلحاد الذين قيل فيهم : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ﴾ [2] فإنَّ أولئك كفروا باسمه وصفته مع إقرارهم برب العالمين ، وهؤلاء أقروا بالاسم وجعلوا المسمى مخلوقاً من مخلوقاته .

وأما إن كان المراد بهذه الحقيقة وما معها صفة ، فإما أن تكون صفة لله أو لغيره ، فإن كانت صفة لله لم يجز أن تكون هى المسمى باسم الرحمن ، فإنَّ ذلك اسم لنفس الله لا لصفاته ، والسجود لله لا لصفاته ، والدعاء لله لا لصفاته ، وإن كانت صفة لغيره فهذا الإلزام أعظم وأعظم .

---

(١) الفرقان : ٦٠ (٢) الرعد : ٣٠

وهذا تقسيم لا محيص عنه ، فإنَّ هذا الملحد فى أسماء اللّه جعل هذه العُقدة التى سماها « عقدة حقيقة النبوّة » وجعلها صورة علم الحق بنفسه ، وجعلها مرآة لانعكاس الوجود المطلق ، محلاً لتميز صفاته القديمة [1] ، وأنَّ الحق ظهر فيه بصورته وصفته واصفاً يصف نفسه ويحيط به ، وهو المسمى باسم الرحمٰن ، ثم ذكر أنه أعطى محمداً هذه العُقدة ، ومعلوم أنَّ المسمى باسم الرحمٰن هو المسمى باسم اللّه كما قال تعالى : ﴿ ادْعُواْ اللَّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ ، أَيًّا مَا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [2] ، فيكون هو سبحانه هذه العُقده التى أعطاها لمحمد ، وإن كانت صفة له أو غيره فتكون هى الرحمٰن ، فهذا الملحد دائر بين أن يكون الرحمٰن هو خلق من خلق اللّه أو صفة من صفاته ، وبين أن يكون الرحمٰن قد وهبه اللّه لمحمد ، وكل من القسمين من أسمج الكفر وأشنعه .

الوجه الخامس : أنَّ قوله : « لهذه الحقيقة طرفان ، طرف إلى الحق المواجه إليها الذى ظهر فيه الوجود الأعلى واصفاً ، وطرف إلى ظهور العالم منه وهو المسمى بالروح الإضافى » ، فذكر فى هذا الكلام ظهور الوجود وظهور العالم ، وقد تقدم أنَّ الحق كان ولم يكن معه شئ وهو متجلى بنفسه بوحدته الذاتية ، وأنه لما نزلت الخلية ظهرت عُقدة حقيقة النبوّة ، فصارت مرآة لانعكاس الوجود فظهر الحق فيه بصورة وصفة واصفاً .

وقد ذكر فى هذا الكلام الحق المواجه إليها والوجود الأعلى الذى ظهر ، فهذا الحق والطرف الذى لها إلى الحق ، فقد ذكر هنا ثلاثة أشياء : الحق ، والوجود ، والطرف ، وقد جعل فيما تقدم الحق هو الوجود المطلق الذى انعكس ، وهو الحق الذى ظهر فيه واصفاً ، فتارة يجعل الحق هو الوجود المطلق ، وتارة يجعل الوجود المطلق قد ظهر فى هذا الحق ، وهذا تناقض .

---

(١) قوله : « محلاً لتميز صفاته القديمة » هو المفعول الثانى لـ « جعل » .

(٢) الإسراء : ١١٠ .

ثم يُقال له : هذان عندك عبارة عن الرب تعالى فقد جعلته ظاهراً وجعلته مظهراً ، فإن عنيتَ بالظهور الوجود فيكون الرب قد وُجِدَ مرة بعد مرة ، وهذا كفر شنيع ، فكيف يُتصور تكرر وجوده ؟ وكيف يُتصور أن يكون قد وُجِدَ فى نفسه بعد أن لم يكن موجوداً فى نفسه ؟ وإن عنيتَ الوضوح والتجلى ، وليس [1] هناك مخلوق يظهر له ويتجلى إذ العالم بعد لم يخلق ، وأنت قلت : ظهر الحق فيه واصفاً ، وسميته الرحمن ، ولم تجعل ظهوره معلوماً ولا مشهوراً ، فكيف يُتصور أن يكون متجلياً لنفسه بعد أن لم يكن متجلياً ؟ فإن هذا وصف له بأنه لم يكن يعلم نفسه حتى علمها .

وأيضاً فقد قلت : « إنه كان متجلياً لنفسه بوحدته » ، فهذا كفر وتناقض .

• حيرة الاتحادية وتناقضهم فى الاتحاد كالنصارى فى التثليث :

الوجه السادس : أنَّ هذا التحير والتناقض مثل تحير النصارى وتناقضهم فى الأقانيم . فإنهم يقولون : الآب والابن وروح القدس ثلاثة آلهة ، وهى إله واحد . والمتدرع بناسوت المسيح هو الابن ، ويقولون : هى الوجود ، والعلم ، والحياة ، والقُدرة .

فيُقال لهم : إن كانت هذه صفات فليست آلهة ، ولا يُتصور أن يكون المتدرع بالمسيح إلهاً إلا أن يكون هو الآب ، وإن كانت جواهر وجب أن لا تكون إلهاً واحداً ، لأن الجواهر الثلاثة لا تكون جوهراً واحداً . وقد يمثلون ذلك بقولنا : زيد العالم القادر الحى ، فهو بكونه عالماً ليس هو بكونه قادراً . فإذا قيل لهم : هذا كله لا يمنع أن يكون ذاتاً واحدة لها صفات متعددة وأنهم لا يقولون ذلك [2] .

---

(١) لعله : « فليس » .

(٢) سقط جواب : « إذا » أو تركه للعلم به ، وتقديره : انقطعوا .

وأيضاً : فالمتحد بالمسيح إذا كان إلهاً امتنع أن يكون صفة ، وإنما يكون هو الموصوف . وأنتم لا تقولون بذاك ، فما هو الحق لا تقولونه ، وما تقولونه ليس بحق ، وقد قال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الحَقَّ ﴾ [1] ، فالنصارى حيارى متناقضون ، إن جعلوا الأقنوم صفة امتنع أن يكون المسيح إلهاً ، وإن جعلوه جوهراً امتنع أن يكون الإله واحداً ، وهم يريدون أن يجعلوا المسيح الله ويجعلوه ابن الله ، ويجعلوا الآب والابن وروح القدس إلهاً واحداً . ولهذا وصفهم الله فى القرآن بالشرك تارة ، وجعلهم قسماً غير المشركين تارة ، لأنهم يقولون الأمرين وإن كانوا متناقضين .

وهكذا حال هؤلاء ، فإنهم يريدون أن يقولوا بالاتحاد وأنه ما ثَمَّ غيره ، ويريدون أن يثبتوا وجود العالَم ، فجعلوا ثبوت العالَم فى علمه وهو شاهد له ، وجعلوه متجلياً لذلك المشهود له ، فإذا تجلى فيه كان هو المتجلى لا غيره . وكانت تلك الأعيان المشهودة هى العالَم .

وهذا الرجل وابن عربى يشتركان فى هذا ولكن يفترقان من وجه آخر ..

فإنَّ ابن عربى يقول : « وجود الحق ظهر فى الأعيان الثابته فى نفسها . فإن شئت قلت هو الحق ، وإن شئتَ قلت هو الخلق ، وإن شئتَ قلت هو الحق والخلق ، وإن شئتَ قلت لا حق من كل وجه ولا خلق من كل وجه ، وإن شئتَ قلت بالحيرة فى ذلك » . وأما هذا فإنه يقول : تجلى الأعيان المشهودة له ، فقد قالا فى جميع الخلق ما يشبه قول ملكية [2] النصارى فى المسيح ، حيث قالوا : بأن اللاهوت والناسوت صارا جوهراً واحداً له أقنومان . وأما التلمسانى فإنه لا يثبت بعد ذلك بحال ، فهو مثل يعاقبة النصارى ، وهم أكفرهم ، والنصارى قالوا

---

(١) النساء : ١٧١

(٢) طائفة من النصارى كاليعاقبة والنسطورية وغيرها ، وانظر جـ ١ هامش ص ٢١٩

بذلك فى شخص واحد ، وقالوا : إنَّ اللاهوت به يتدرع الناسوت بعد أن لم يكن متدرعاً به ، وهؤلاء قالوا : إنه فى جميع العالَم ، وإنه لم يزل ، فقالوا بعموم ذلك ولزومه ، والنصارى قالوا بخصوصه وحدوثه ، حتى قال قائلهم : النصارى إنما كفروا لأنهم خصَّصوا ، وهذا المعنى قد ذكره ابن عربى فى غير موضع من الفصوص ، وذكر أنَّ إنكار الأنبياء على عُبَّاد الأصنام إنما كان لأجل التخصيص ، وإلا فالعارف المكمل مَن عبده فى كل مظهر وهو العابد والمعبود ، وأنَّ عُبَّاد الأصنام لو تركوا عبادتهم لتركوا من الحق بقدر ما تركوا منها ، وأنَّ موسى إنما أنكر على هارون لكون هارون نهاهم عن عبادة العجل لضيق هارون وعلم موسى بأنهم ما عبدوا إلا اللّه ، وأنَّ هارون إنما لم يُسلِّط على العجل ليعبدوا اللّه فى كل صورة ، وأنَّ أعظم مظهر عُبِدَ فيه هو الهوى ، فما عُبِدَ أعظم من الهوى . لكن ابن عربى يثبت أعياناً ثابتة فى العدم .

• بيان بطلال أقوال الاتحادية بالعقل والنقل :

وهذا ابن حمويه إنما أثبتها مشهودة فى العلم فقط ، وهذا القول هو الصحيح لكن لا يتم له معه ما طلبه من الاتحاد ، ولهذا كان هو أبعدهم عن تحقيق الاتحاد والقُرب إلى الإسلام ، وإن كان أكثرهم تناقضاً وهذياناً ، فكثرة الهذيان خير من كثرة الكفر . ومقتضى كلامه هذا أنه جعل وجوده مشروطاً بوجود العالَم ، وإن كان له وجود ما غير العالَم ، كما أنَّ نور العين مشروط بوجود الأجفان وإن كان قائماً بالحدقة ، فعلى هذا يكون اللّه مفتقراً إلى العالَم محتاجاً إليه كاحتياج نور العين إلى الجفنين . وقد قال اللّه تعالى : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ ... إلى آخر الآية [1] . فإذا كان هذا قوله فيمن وصفه بأنه فقير إلى أموالهم ليعطيها الفقراء ، فكيف قوله فيمن

---

(١) آل عمران : ١٨١

جعل ذاته مفتقرة إلى مخلوقاته ، بحيث لولا مخلوقاته لانتشرت ذاته وتفرقت وعدمت ، كما ينتشر نور العين ويتفرق ويعدم إذا عدم الجفن ؟ وقد قال فى كتابه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ ، وَلَئِن زَالَتَا ﴾ .. الآية [1] . فمن يمسك السموات ؟ وقال فى كتابه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِه أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِه ﴾ ... الآية [2] . وقال : ﴿ رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [3] ، وقال : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، وَلاَ يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا ، وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ ﴾ [4] لا يؤده : لا يثقله ولا يكرثه ، وقد جاء فى الحديث - حديث أبى داود : « ما السموات والأرض وما بينهما فى الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، والكرسى فى العرش كتلك الحلقة فى الفلاة » وقد قال فى كتابه : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِه وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ .... الآية [5] . وقد ثبت فى الصحاح من حديث أبى هريرة وابن عمر وابن مسعود : « إنَّ الله يمسك السموات والأرض بيده » ، فمَن يكون فى قبضته السموات والأرض ، وكرسيه قد وسع السموات والأرض ، ولا يؤده حفظهما ، وبأمره تقوم السماء والأرض ، وهو الذى يمسكهما أن تزولا ، أيكون محتاجاً إليهما مفتقراً إليهما ، إذا زالا تفرَّق وانتشر ؟ وإذا كان المسلمون يُكَفِّرون مَن يقول : إنَّ السموات تقله أو تظله ، لما فى ذلك من احتياجه إلى مخلوقاته ، فمَن قال : إنه فى استوائه على العرش محتاج إلى العرش كاحتياج المحمول إلى حامله فإنه كافر ؟ لأنَّ الله غنى عن العالَمين ، حى قيوم ، هو الغنى المطلق وما سواه فقير إليه ، مع أنَّ أصل الاستواء على العرش ثابت بالكتاب والسُنَّة واتفاق سَلَف الأمة وأئمة السُنَّة ، بل هو ثابت فى كل كتاب أُنزل على كل نبى أُرسل ، فكيف بمن يقول إنه مفتقر إلى السموات والأرض ،

---

(١) فاطر : ٤١ (٢) الروم : ٢٥ (٣) الرعد : ٢

(٤) البقرة : ٢٥٥ (٥) الزمر : ٦٧

وإنه إذا ارتفعت السموات والأرض تفرَّق وانتشر وعدم ؟ فإن حاجته فى الحمل إلى العرش أبعد من حاجة ذاته إلى ما هو دون العرش .

ثم يقال لهؤلاء : إن كنتم تقولون بقِدَم العالَم وإنكار انفطار السموات والأرض وانشقاقهما ، وإن كنتم تقولون بحدوثهما فكيف كان قبل خلقهما ؟ هل كان منتشراً متفرقاً معدوماً ، ثم لما خلقهما صار موجوداً مجتمعاً ؟ هل يقول هذا عاقل ؟ فأنتم دائرون بين نوعين من الكفر ، مع غاية الجهل والضلال ، فاختاروا أيهما شئتم : إنَّ صور العالَم لا تزال تفنى ويحدث فى العالَم بدلها مثل الحيوان والنبات والمعادن ، ومثل ما يُحدثه اللّه فى الجو من السحاب والرعد والبرق والمطر وغير ذلك ، فكلما عدم شئ من ذلك انتقص من نور الحق ويتفرق ويعدم بقدر ما عدم من ذلك ، وكلما زاد شئ من ذلك زاد نوره واجتمع ووُجِد .

وأما إن عنى أنَّ نور اللّه باق بعد زوال السموات والأرض لكن لا يظهر فيه شئ - فما الشئ الذى يظهر بعد عدم هذه الأشياء ؟ وأى تأثير للسموات والأرض فى حفظ نور اللّه ، وقد ثبت فى الصحيح عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ أنه قال : « إنَّ اللّه لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور - أو النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه » ، وقال عبد اللّه بن مسعود : « إنَّ ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور السموات من نور وجهه » ، فقد أخبر الصادق المصدوق أنَّ اللّه لو كشف حجابه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من السموات والأرض وغيرهما ، فمَن يكون سبحات وجهه تحرق السموات والأرض وإنما حجابه هو الذى يمنع هذا الإحراق ، أيكون نوره إنما يُحفظ بالسموات والأرض ؟

الوجه السابع : قوله : « فالعلويات جفنها الوقائى ، والسفليات جفنها التحتانى ، والتفرقة البَشرية فى السفليات ، أهداب الجفن الفوقانى ، والنفس الكلية

سوادها ، والروح الأعظم بياضها » . يقال له : فإذا كان العالَم هو هذه العين ، فالعين الأخرى أى شئ هى ؟ وبقية الأعضاء أين هى ؟ هذا لأنه على قولك إن عنيتَ بالعين المتعين ، وإن عنيتَ الذات والنفس وهو ما تعيَّن فيه ، فقد جعلتَ نفس السموات والأرض والحيوان والملائكة أبعاضاً من اللّه وأجزاءاً منه ، وهذا قول هؤلاء الزنادقة والفرعونية الاتحادية الذين أتبعهم اللّه فى الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين .

فيُقال له : فعلى هذا لم يخلق اللّه شيئاً ولا هو رب العالَمين ، لأنه إما أن يخلق نفسه أو غيره ، فخلقه لنفسه محال وهذا معلوم بالبديهة أنَّ الشئ لا يخلق نفسه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ ﴾ (١) ، يقول : أُخُلقوا من غير خالق أم هم خلقوا أنفسهم ؟ ولهذا قال جبير بن مطعم لما سمعتُ النبى ﷺ . يقرأ هذه الآية أحسست بفؤادى قد انصدع . فقد علموا أنَّ الخالق لا يكون هو المخلوق بالبديهة ، وخلقه لغيره ممتنع على أصلهم لأنَّ هذه الأشياء هى أجزاء منه ليست غيراً له .

الوجه الثامن : أنه جعل البَشر أهداب جفن حقيقة اللّه ، وهم دائماً يزيدون وينقصون ، ويموتون ويحيون ، وفيهم الكافر والمؤمن ، والفاجر والبر ، فتكون أهداب جفن حقيقة اللّه لا تزال منتوفة كاشرة فاسدة ، ويكون المشركون واليهود والنصارى أجفان حقيقته ، وقد لعن مَن جعلهم أبناءه على سبيل الاصطفاء ، فكيف بمن جعلهم من نفسه ؟

الوجه التاسع : أنه متناقض من حيث جعل الروح بياضها والنفس الكلية سوادها والسموات الجفن الأعلى والأرضون الجفن الأسفل . ومعلوم أنَّ جفنى عين الإنسان محيطان بالسواد والبياض ، والروح والنفس عنده هى فوق السموات والأرض ليست بين السماء والأرض ، كما أنَّ سواد العين وبياضها بين الجفنين ، فهذا التمثيل مع أنه من أقبح الكفر ففيه من الجهالة والتناقض ما تراه .

---

(١) الطور : ٣٥

الوجه العاشر : أنَّ النفس الكلية اسم تلقاه عن الصابئة [1] الفلاسفة . وأما الروح فإنَّ مقصوده بها هو الذى يسمونه « العقل » وهو أول الصادرات . وسماه هو « روحاً » ، وهذا بناه على مذهب الصابئة ، وليس هذا من دين الحنفاء ، وقد بيَّنا فساد ذلك فى غير هذا الموضع . لكن الصابئة الفلاسفة خير من هؤلاء ، فإنهم يقرون بواجب الوجود الذى صدرت عنه العقول والنفوس والأفلاك والأرض لا يجعلونها إياه ، وهؤلاء يجعلونها اياه . فقولهم انما ينطبق على المعطلّة مثل فرعون وحزبه الذى قال : ﴿ وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ [2] ، وقال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلٰهٍ غَيْرِى ﴾ [3] ، وقال : ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِى صَرْحاً لَّعَلِّى أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمٰوَاتِ ﴾ ... الآية [4] ، فإنَّ فرعون يقر بوجود هذا العالَم ويقول : ما فوقه رب ولا له خالق غيره . فهؤلاء إذا قالوا إنه عين السموات والأرض ، فقد جحدوا ما جحده فرعون ، وأقروا بما أقر به فرعون ، إلا أنَّ فرعون لم يسمه إلهاً ولم يقل هو اللّه . وهؤلاء قالوا هذا هو اللّه . فهم مقرون بالصانع لكن جعلوه هو الصنعة . فهم فى الحقيقة معطلّون ، وفى اعتقادهم مقرون ، وفرعون بالعكس كان منكراً للصانع فى الظاهر ، وكان فى الباطن مقراً به . فهو أكفر منهم ، وهم أضل منه وأجهل . ولهذا يعظمونه جداً .

الوجه الحادى عشر : قول القائل : « بل هذا هو الحق الصريح المتبع ، لا ما يرى المنحرف عن مناهج الإسلام ودينه ، المتحير فى بيداء ضلالته وجهله » . فيقال : مَن الذى قال هذا الحق من الأولين والآخرين ؟ وهذا كتاب اللّه من أوله إلى آخره الذى هو كلام اللّه ووحيه وتنزيله ، ليس فيه شئ من هذا ، ولا فى حديث واحد عن النبى ﷺ . ولا عن أحد من أئمة الإسلام ومشايخه . إلا عن هؤلاء المفترين

---

(١) للتعريف بالصابئة انظر جـ ١ هامش ص ١٧٢

(٢) الشعراء : ٢٣ (٣) القصص : ٣٨ (٤) غافر : ٣٦ - ٣٧

على اللّه الذين هم فى مشايخ الدين نظير « چنكيز خان » فى أمر الحرب ، فديانتهم تشبه دولته ، ولعل إقراره بالصانع خير من إقرارهم ، لكن بعضهم قد يوجب الإسلام فيكون خيراً من التتار من هذا الوجه .

وأما محققوهم وجمهورهم فيجوز عندهم التهود والتنصر والإسلام والإشراك ، لا يحرِّمون شيئاً من ذلك ، بل المحقق عندهم لا يحرم عليه شئ ولا يجب عليه شئ ، معلوم أنَّ التتار الكفار خير من هؤلاء ، فإنَّ هؤلاء مرتدُّون عن الإسلام من أقبح أهل الردَّة ، والمرتد شر من الكافر الأصلى من وجوه كثيرة ، وإذا كان أبو بكر الصدِّيق ..... [1] .

• رد قول بعض طواغيتهم « إنَّ العالَم حدقة عين اللّه » :

وأما ما حكاه عن الذى سماه الشيخ المحقق العالِم الربانى الغوث السابع فى الشمعة من أنه قال : « اعلم أنَّ العالَم بمجموعه حدقة عين اللّه التى لا تنام ... » إلى آخره ، فالكلام عليه من وجوه :

أحدها : أنَّ تسمية قائل مثل هذا المقال محققاً وعالماً وربانياً عين الضلالة والغواية ، بل هذا كلام لا تقوله لا اليهود ولا النصارى ولا عُبَّاد الأوثان ، فإن كان الذى قاله مسلوب العقل كان حكمه حكم غيره فى أنَّ اللّه رفع عنه القلم ، وإن كان عاقلاً فجرأة على اللّه الذى يقول : ﴿ وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِداً * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ ... إلى آخر الآيات [2] ، وقال : ﴿ وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ الظَّالِمِينَ ﴾ [3] وقال :

---

(١) بياض فى الأصل قدر سطرين لعله ذكر فيه أمثاله للمرتدين ومانعى الزكاة من العرب وكون هؤلاء شر منهم لإباحتهم ترك جميع شرائع الإسلام .

(٢) مريم : ٨٨ - ٩٠ (٣) الأنبياء : ٢٦ - ٢٩

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [1] .. فإذا كان هذا قوله فيمن يقول : إنهم أبناؤه وأحباؤه، فكيف قوله فيمن يقول : إنهم أهداب جفنه ؟ تعالى الله عما يقول الظالمون عُلُواً كبيراً .

الوجه الثانى : أنَّ هذا الشيخ الضال الذى قال هذا الكفر والضلال قد نقض آخر كلامه بأوله ، فإنَّ لفظ العين مشترك بين الشئ وبين العضو المبصر وبين مسميات أُخر ، وإذا قال بعين الشئ ، فهو من العين التى بمعنى النفس - أى تميُّز بنفسه عن غيره ، فإذا قال : إنَّ العالم بمجموعه حدقة عين الله التى لا تنام ، فالعين هنا بمعنى البصر .

ثم قال فى آخر كلامه : « ونعنى بعين الله ما تعيَّن الله فيه » . فهذا من العين بمعنى النفس ، وهذه العين ليس لها حدقة ولا أجفان ، وإنما هذا بمنزلة مَن قال : نبعت العين وفاضت وشربنا منها واغتسلنا ، ووزنتها فى الميزان فوجدتها عشرة مثاقيل وذهبها خالص ، وسبب هذا أنه كثيراً ما كان يتصرف فى حروف بلا معان .

الوجه الثالث : أنه تناقض من وجه آخر فإنه إذا كان العالَم هو حدقة العين فينبغى أن يكون قد بقى من الله بقية الأعضاء غير العين ، فإذا قال فى آخر كلامه : « والله هو نور العين » ، كان الله جزءاً من العين أو صفة له ، فقد جعل فى أول كلامه العالَم جزءاً من الله ، وفى آخر كلامه جعل الله جزء من العالَم ، وكل من القولين كفر ، بل هذا أعظم من كفر الذين ذكرهم الله بقوله : ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً ، إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ * أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴾ [2] .. فإذا كان الله كفَّر مَن جعل له من

---

(١) المائدة : ١٧ - ١٨ (٢) الزخرف : ١٥ - ١٦

عباده جزءاً ، فكيف مَن جعل عباده تارة جزءاً منه وتارة جعله هو جزءاً منهم ؟ فلعن اللّه أرباب هذه المقالات وانتصر لنفسه ولكتابه ولرسوله ولعباده المؤمنين منهم .

الوجه الرابع : أنه تناقض من جهة أخرى ، فإنه إذا قال : « العين : ما يتعين اللّه فيه ، والعالَم كله حدقة عينه التى لا تنام » ، فقد جعله متعيناً فى جميع العالَم ، فإذا قال بعدها : « وهو نور العين » ، بقيت سائر أجزاء العين من الأجفان والأهداب والسواد والبياض لم يتعيَّن فيها ، فقد جعله متعيِّناً فيها غير متعيَّن فيها .

الوجه الخامس : أنَّ نور العين مفتقر إلى العين محتاج إليها لقيامه بها ، فإذا كان اللّه فى العالَم كالنور فى العين وجب أن يكون محتاجاً إلى العالَم .

واعلم أنَّ هذا القول يشبه قول الحلولية الذين يقولون : « هو فى العالَم كالماء فى الصوفة ، وكالحياة فى الجسم » ... ونحو ذلك ، ويقولون : « هو بذاته فى كل مكان » ، وهذا قول قدماء الجهمية الذين كفَّرهم أئمة الإسلام . وحُكِيَ عن الجهم [1] أنه كان يقول : هو مثل هذا الهواء ، أو قال : هو هذا الهواء .

وقوله أولاً : « هو حدقة عين اللّه » ، يشبه قول الاتحادية ، فإنَّ الاتحادية يقولون : : « هو مثل الشمعة التى تتصور فى صور مختلفة وهى واحدة » ، فهو عندهم الوجود ، واختلاف أحواله كاختلاف أحوال الشمعة ، ولهذا كان صاحب هذه المقالات متخبطاً لا يستقر عند المسلمين الموحدين المخلصين ، ولا هو عند هؤلاء الملاحدة الاتحادية من محققيهم العارفين . فإنَّ هؤلاء كلهم من جنس النصيرية والإسماعيلية [2] ، مقالات هؤلاء فى الرب من جنس مقالات أولئك ، وأولئك فيهم المتمسك بالشريعة وفيهم المتخلى عنها ، وهؤلاء كذلك ، لكن أولئك أحذق فى الزندقة ، وهم يعلمون أنهم معطلّون مثل فرعون ، وهؤلاء جُهَّال يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

---

(١) للتعريف بالجهمية ، والجهم بن صفوان انظر جـ ١ هامش ص ١١٧ ، جـ ٣ هامش ص ١٢ ، ٢٨

(٢) للتعريف بالنصيرية والإسماعيلية انظر جـ ١ هامش ص ٧٥ ، ١٧٢

الوجه السادس : قوله : « من العلويات والسفليات لو ارتفعت لانبسط نور الله تعالى بحيث لا يظهر فيه شئ أصلاً » . وهذا كلام مجمل ، لا ريب أن قائل هذه المقالة من المذبذبين بين الكافرين والمؤمنين ، لا هو من المؤمنين ولا من الاتحادية المحضة ، لكنه قد لبّس الحق بالباطل ، وذلك أنّ الاتحادية يقولون : إنّ عين السموات والأرض لو زالت لعدم الله ، واللفظ يُصرّح به بعضهم ، وأما غالبهم فيشيرون إليه إشارة ، وعوامهم لا يفهمون هذا من مذهب الباقين ، فإنّ هؤلاء من جنس القرامطة والباطنية [1] ، وأولئك إنما يصل إلى البلاغ الأكبر الذى هو آخر المراتب خواصهم . ولهذا حدثنى بعض أكابر هؤلاء الاتحادية عن صاحب هذه المقالة أنه كان يقول : « ليس بين التوحيد والإلحاد إلا فرق لطيف » ، فقلت له : هذا من أبطل الباطل ، بل ليس بين مذهبين من الفرق أعظم مما بين التوحيد والإلحاد . وهذا قاله بناءً على هذا الخلط واللّبس الذى خلطه ، مثل قوله : « إنّ العلويات والسفليات لو ارتفعت لانبسط نور الله بحيث لا يظهر فيه شئ » .

فيقال له : إذا ارتفعت العلويات والسفليات فما تعنى بانبساطه ؟ أتعنى تفرقه وعدمه كما يتفرق نور العين عند عدم الأجفان ؟ أم تعنى أنه ينبسط شئ موجود ؟ وما الذى ينبسط حينئذ ؟ هو نفس الله أم صفة من صفاته ؟ وعلى أى شئ ينبسط ؟ وما الذى يظهر فيه أو لا يظهر ؟

فإن عنيتَ الأول وهو مقتضى أول كلامك ، لأنك قلت : وإنما قلنا إنّ العلويات والسفليات أجفان عين الله لأنهما يحافظان على ظهور النور ، فلو قطعت أجفان عين الإنسان لتفرّق نور عينه وانتشر بحيث لا يرى شيئاً أصلاً ، فكذلك العلويات والسفليات لو ارتفعت لانبسط نور الله بحيث لا يظهر فيه شئ أصلاً .

وقد قلتَ : إنّ الله هو نور العين والروح الأعظم بياضها والنفس الكلية سوادها . ومعلوم أنّ نور العين على ما ذكرته بشرط وجوده هو الأجفان ،

---

(١) للتعريف بالقرامطة والباطنية انظر جـ ١ هامش ص ٧٥ ، ٩١ ، ١٧٢

فإذا ارتفع الشرط ارتفع المشروط ، فيكون العالَم عندك شرطاً فى وجود اللّه ، فإذا ارتفع العالَم ارتفعت حقيقة اللّه لانتفاء شرطه ، وإن أثبتَّ له ذاتاً غير العالَم فهذا أحد قولى الاتحادية ، فإنهم تارة يجعلون وجود الحق هو عين وجود المخلوقات ليس غيرها . وعلى هذا فلا يُتصور وجوده مع عدم المخلوقات ، وهذا تعطيل محض للصانع ، وهو قول القونوى والتلمسانى [1] ، وهو قول صاحب الفصوص فى كثير من كلامه ، وتارة يجعلونه وجوداً قائماً بنفسه ، ثم يجعلون نفس ذلك الوجود هو أيضاً وجود المخلوقات بمعنى أنه فاض عليها . وهذا أقل كفراً من الأول ، وإن كان كلاهما من أغلظ الكفر وأقبحه .

وفى كلام صاحب الفصوص وغيره فى بعض المواضع ما يوافق هذا القول . وكذلك كلام هذا فإنه قد يشير إلى هذا المعنى .

ثم مع ذلك .. هل يجعلون وجوده مشروطاً بوجود العالَم فيكون محتاجاً إلى العالَم أو لا يجعلون ؟ قد يقولون هذا ، وقد يقولون هذا .

• مدحهم للكفر والضلال وجعلهم الكفار أعلم باللّه من الأنبياء :

السابع : أنهم يمدحون الضلال والحيرة والظلم والخطا والعذاب الذى عذَّب اللّه به الأمم ، ويقلبون كلام اللّه وكلام رسوله قلباً يُعلم فساده بضرورات العقول ، مثل قول صاحب الفصوص : « لو أنَّ نوحاً ما جمع لقومه بين الدعوتين لأجابوه ، فدعاهم جهاراً ، ثم دعاهم إسراراً » - إلى أن قال : « وذُكِرَ عن قومه أنهم تصاموا عن دعوته ، لعلمهم بما يجب عليهم من إجابة دعوته ، فعلم العلماء باللّه ما أشار إليه نوح فى حق قومه من الثناء عليهم بلسان الذم ، وعلم أنهم إنما لم يجيبوا دعوته لما فيها من الفرقان ، والأمر قرآن لا فرقان ومَن أقيم فى القرآن لا يصغى إلى الفرقان وإن كان فيه .

---

(١) للتعريف بالقونوى والتلمسانى انظر جـ ١ هامش ص ١١٢ ، وص ٢٣ ، ٢٨ من الجزء الرابع .

فيمدحون ويحمدون ما ذمّه الله ولعنه ونهى عنه ، ويأتون من الإفك والفرية على الله والإلحاد فى أسماء الله وآياته بما ﴿ تَكَادُ السَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً ﴾ (١) كقول صاحب الفصوص فى فص نوح :

﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُواْ ﴾ فهى التى خطت بهم فغرقوا فى بحار العلم بالله وهو الحيرة ﴿ فَأُدْخِلُواْ نَاراً ﴾ (٢) فى عين الماء فى المحمدتين ، ﴿ وَإِذَا البِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ (٣) - سجرْتُ التنور إذا أوقدته : ﴿ فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً ﴾ (٤) فكان الله عين أنصارهم ، فهلكوا فيه إلى الأبد ، فلو أخرجتهم إلى السيف سيف الطبيعة لنزلوا عن هذه الدرجة الرفيعة ، وإن كان الكل لله وبالله بل هو الله ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ ﴾ الذين استغشوا ثيابهم وجعلوا أصابعهم فى آذانهم ، طلباً للستر لأنه دعاهم ليغفر لهم ، والغفر الستر ﴿ دَيَّاراً ﴾ (٥) أحداً حتى تعم المنفعة كما عمّت الدعوة ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ ﴾ أى تدعهم وتتركهم ﴿ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ ﴾ أى يحيروهم ويخرجوهم من العبودية ، إلى ما فيهم من أسرار الربوبية ، فينظروا أنفسهم أرباباً ، بعد ما كانوا عند أنفسهم عبيداً ، فهم العبيد الأرباب ﴿ وَلَا يَلِدُواْ ﴾ أى ما ينتجون ولا يظهرون ﴿ إِلَّا فَاجِراً ﴾ أى مظهر ما سُتِرَ ﴿ كَفَّاراً ﴾ (٦) أى ساتراً ما ظهر بعد ظهوره ، فينظرون ما سترهم ثم يسترون بعد ظهوره . فيحار الناظر ، ولا يعرف قصد الفاجر فى فجوره ولا الكافر فى كفره ، والشخص واحد ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِى ﴾ أى استرنى واستر مراحلى ، فيُجهل مقامى وقدرى كما جُهِلَ قدرك فى قولك : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (٧) ﴿ وَلِوَالِدَىَّ ﴾ أى من كنت تنتجه عنهما وهما العقل والطبيعة ﴿ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ ﴾ أى قلبى ﴿ مُؤْمِناً ﴾ مصدقاً بما يكون فيه من الأخبار الإلٰهية

---

(١) مريم : ٩٠ (٢) نوح : ٢٥ (٣) التكوير : ٦
(٤) نوح : ٢٥ (٥) نوح : ٢٦ (٦) نوح : ٢٧
(٧) الزمر : ٦٧

وهو ما حدّثت به أنفسها ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ من العقول ﴿ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ من النفوس ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ ﴾ من الظلمات أهل العنت المكتنفين داخل الحجب الظلمانية ﴿ إِلَّا تَبَاراً ﴾ (١) أى هلاكاً ، فلا يعرفون نفوسهم ، لشهودهم وجه الحق دونهم . اهـ .

● زعمهم أنَّ كلامهم وحى من اللّه لهم أو من النبى مناماً :

وهذا كله من أقبح تبديل كلام اللّه وتحريفه ، ولقد ذَمَّ اللّه أهل الكتاب فى القرآن على ماهو دون هذا ، فإنه ذمهم على أنهم حرَّفوا الكَلِمَ عن مواضعه وأنهم : ﴿ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ (٢) ، ﴿ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) وهؤلاء قد حرفوا كلام اللّه عن مواضعه أقبح تحريف ، وكتبوا كتب النفاق والإلحاد بأيديهم وزعموا أنها من عند اللّه ، تارة يزعمون أنهم يأخذون من حيث يأخذ المَلَك الذى يوحى به إلى النبى ، فيكون فوق النبى بدرجة ، وتارة يزعمون أنهم يأخذون من حيث يأخذ اللّه ، فيكون أحدهم فى عمله بنفسه بمنزلة علم اللّه به لأنَّ الأخذ من معدن واحد ، وتارة يزعم أحدهم أنَّ النبى ﷺ أعطاه فى منامه هذا النفاق العظيم ، والإلحاد البليغ ، وأمره أن يخرج به إلى أمته وأنه أبرزه كما حدَّ له رسول اللّه ﷺ . من غير زيادة ولا نقصان ، وكان جماعة من الفضلاء - حتى بعض مَن خاطبنى فيه وانتصر له - يرى أنه كان يستحل الكذب ، ويختارون أن يُقال : كان يتعمد الكذب ، وأنَّ ذلك هو أهون من الكفر ، ثم صرَّحوا بأنَّ مقالته كفر . وكان ممن يشهد عليه بتعمد الكذب غير واحد من عقلاء الناس وفضلائهم من المشايخ والعلماء .

---

(١) نوح : ٢٨ (٢) البقرة : ٧٩ (٣) آل عمران : ٧٨

ومعلوم أن هذا من أبلغ الكذب على الله ورسوله ، وأنه من أحق الناس بقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ (١) وكثير من المتنبئين الكذابين كالمختار بن أبى عبيد (٢) وأمثاله لم يبلغ كذبهم وافتراؤهم إلى هذا الحد ، بل مسيلمة الكذاب لم يبلغ كذبه وافتراؤه إلى هذا الحد ، وهؤلاء كلهم كان يُعظِّم النبى ﷺ ويقر له بالرسالة ، لكن كان يدعى أنه رسول آخر ، ولا ينكر وجود الرب ولا ينكر القرآن فى الظاهر ، وهؤلاء جحدوا الرب وأشركوا به كل شئ وافتروا هذه الكتب التى قد يزعمون أنها أعظم من القرآن ، ويفضلون نفوسهم على النبى ﷺ من بعض الوجوه ، كما قد صرَّح به صاحب الفصوص عن خاتم الأولياء .

● زعمهم أنَّ القرآن كله شرك ، وذمهم للصراط المستقيم :

وحدثنى الثقة عن الفاجر التلمسانى أنه كان يقول : « القرآن كله شرك ليس فيه توحيد ، وإنما التوحيد فى كلامنا » .

وأما الضلال والحيرة فما مدح الله ذلك قط ولا قال النبى ﷺ : « زدنى فيك تحيراً » ولم يرو هذا الحديث أحد من أهل العلم بالحديث ، ولا هو فى شئ من الحديث ، ولا فى شئ من كتب مَن يعلم الحديث ، بل ولا مَن يعرف الله ورسوله ، وكذلك احتجاجه بقوله : ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْاْ فيه وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ ﴾ (٣) ، وإنما هذا حال المنافقين المرتدِّين ، فإنَّ الضلالَ والحيرة مما ذمَّه الله

---

(١) الأنعام : ٩٣

(٢) المختار بن أبى عبيد : المختار الثقفى ، من زعماء الثائرين على بنى أمية ، اشترك فى ثورة مسلم بن عقيل فسجنه عبد الله بن زياد ونفاه ، ثم ثار فى الكوفة طلباً بثأر الحسين ، انتصر قائده إبراهيم بن مالك الأشتر على الجيش الأموى فى معركة الخازر حيث قتل عبد الله بن زياد ، قتل فى محاولة يائسة للدفاع عن الكوفة وقد حاصره فيها مصعب بن الزبير ، توفى المختار الثقفى عام ٦٧ هـ بعد ادعاؤه بالنبوة ، ثم ادعاؤه بحلول روح الله فيه !! ، وانظر التعريف بمسيلمة : هامش ص ٦ من الجزء الرابع (البلتاجى) .

(٣) البقرة : ٢٠

فى القرآن ، قال الله تعالى فى القرآن : ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ من دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾ ... الآية [1] .

وهكذا يريد هؤلاء الضالون المتحيرون أن يفعلوا بالمؤمنين ، يريدون أن يدعوا من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم وهى المخلوقات والأوثان والأصنام وكل ما عُبِدَ من دون الله ، ويريدون أن يردوا المؤمنين على أعقابهم ، يردونهم عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت ، ويصيروا حائرين ضالين كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى : ائتنا ، وقال تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ [2] أى يحارون ويترددون ، وقال تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [3] فأمر بأن نسأله هداية الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم المغايرين للمغضوب عليهم وللضالين . وهؤلاء يذمون الصراط المستقيم ويمدحون طريق أهل الضلال والحيرة ، مخالفة لكتب الله ورسله ، ولما فطر الله عليه عباده من العقول والألباب .

* * *

فصل

فى ذكر بعض ألفاظ ابن عربى التى تبيِّن ما ذكرنا من مذهبه ، فإنَّ أكثر الناس قد لا يفهمونه

قال فى فص يوسف - بعد أن جعل العالَم بالنسبة إلى الله كظل الشخص ، وتناقض فى التشبيه : « فكل ما تدركه فهو وجود الحق فى أعيان الممكنات ، فمن حيث هوية الحق هو وجوده ، ومن حيث اختلاف الصور فيه هو أعيان الممكنات ، فكما لا يزول عنه باختلاف الصور اسم الظل ، كذلك لا يزول عنه

---

(١) الأنعام : ٧١ (٢) الأنعام : ١١٠ (٣) الفاتحة : ٦ - ٧

فى القرآن ، قال الله تعالى فى القرآن : ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ من دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾ ... الآية [1] .

وهكذا يريد هؤلاء الضالون المتحيرون أن يفعلوا بالمؤمنين ، يريدون أن يدعوا من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم وهى المخلوقات والأوثان والأصنام وكل ما عُبِدَ من دون الله ، ويريدون أن يردوا المؤمنين على أعقابهم ، يردونهم عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت ، ويصيروا حائرين ضالين كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى : ائتنا ، وقال تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ [2] أى يحارون ويترددون ، وقال تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [3] فأمر بأن نسأله هداية الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم المغايرين للمغضوب عليهم وللضالين . وهؤلاء يذمون الصراط المستقيم ويمدحون طريق أهل الضلال والحيرة ، مخالفة لكتب الله ورسله ، ولما فطر الله عليه عباده من العقول والألباب .

* * *

فصل

فى ذكر بعض ألفاظ ابن عربى التى تبيِّن ما ذكرنا من مذهبه ، فإنَّ أكثر الناس قد لا يفهمونه

قال فى فص يوسف - بعد أن جعل العالَم بالنسبة إلى الله كظل الشخص ، وتناقض فى التشبيه : « فكل ما تدركه فهو وجود الحق فى أعيان الممكنات ، فمن حيث هوية الحق هو وجوده ، ومن حيث اختلاف الصور فيه هو أعيان الممكنات ، فكما لا يزول عنه باختلاف الصور اسم الظل ، كذلك لا يزول عنه

---

(١) الأنعام : ٧١ (٢) الأنعام : ١١٠ (٣) الفاتحة : ٦ - ٧

باختلاف الصور اسم العالَم أو اسم سوى الحق ، فمن حيث أحدية كونه ظلاً هو الحق ، لأنه الواحد الأحد ، ومن حيث كثرة الصور هو العالَم ، فتفطن وتحقق ما أوضحناه لك . وإذا كان الأمر على ما ذكرته لك فالعالَم متوهم ما له وجود حقيقى ، وهذا معنى الخيال ، أى خُيِّلَ لك أنه أمر زائد قائم بنفسه خارج عن الوجود الحق ، وليس كذلك فى نفس الأمر . ألا تراه فى الحس متصلاً بالشخص الذى امتد عنه يستحيل عليه الانفكاك عن ذلك الاتصال ، لأنه يستحيل على الشئ الانفكاك عن ذاته ، فاعرف عينك ومَن أنت وما هويتك ؟ وما نسبتك إلى الحق وبما أنت حق وبما أنت عالم وسوى وغير » وما شاكل هذه الألفاظ .

وقال فى أول الفصوص بعد « فص حكمة إلهية فى كلمة آدمية » : وهو « فص حكمة نفثية ، فى كلمة شيثية » وقد قسم العطاء بأمر الله ، وإنما يكون عن سؤال وعن غير سؤال وذكر القسم الذى لإنسان [1] لأن شيثاً هو هبة الله » ... إلى أن قال : « ومن هؤلاء مَن يعلم أنَّ علم الله به فى جميع أحواله هو ما كان عليه فى حال ثبوت عينه قبل وجودها ، ويعلم أنَّ الحق لا يعطيه إلا ما أعطاه عينه من العلم به ، وهو ما كان عليه فى حال ثبوته ، فيعلم علم الله به من أين حصل ، وما ثَمَّ صنف من أهل الله أعلا وأكشف من هذا الصنف ، فهم الواقفون على سر القَدَر ، وهم على قسمين : منهم مَن يعلم ذلك مجملاً ، ومنهم مَن يعلم ذلك مفصلاً ، والذى يعلمه مفصلاً أعلا وأتم من الذى يعلمه مجملاً ، فإنه يعلم ما تعيَّن فى علم الله فيه ، إما بإعلام الله إياه بما أعطاه عينه من العلم به ، وإما بأن يكشف له عن عينه الثابتة وعن انتقالات الأحوال عليها إلى ما لا يتناهى ، وهو أعلا ، فإنه يكون فى علمه بنفسه بمنزلة علم الله به ، لأنَّ

---

(١) كذا فى الأصل وهو محرَّف أو سقط منه شىء ، والكلام فى « فص شيث » هذا يقتضى أنَّ المراد أول إنسان حصل له العلم بالنفث الملكى فى الروع هو « شيث » وهو علة تسميته . والشيخ أشار إلى مقدمة هذا الفص إشارة مجملة لأنَّ غرضه ما بعدها .

الأخذ من معدن واحد ، إلا أنه من جهة العبد عناية من الله سبقت له هى من جملة أحوال عينه يعرفها صاحب هذا الكشف إذا أطلعه الله على ذلك - أى على أحوال عينه - فإنه ليس فى وسع المخلوق إذا أطلعه الله على أحوال عينه الثابتة التى تقع صورة الوجود عليها أن يطلع فى هذه الحال على إطلاع الحق على هذه الأعيان الثابتة فى حال عدمها ، لأنها نسب ذاتية لا صورة لها ، فبهذا القَدْر نقول : إنَّ العناية الإلهية سبقت لهذا العبد بهذه المساواة فى إفادتها العلم ، ومن هنا يقول : « الله حتى نعلم » وهى كلمة محققة المعنى ، ما هى كما يتوهم مَن ليس له هذا المشرب ، وغاية المنزه أن يجعل ذلك الحدوث فى العلم للتعلق ، وهو أعلا وجه يكون للمتكلم يعقله فى هذه المسألة ، لولا أنه أثبت العلم زائداً على الذات فجعل التعلق له لا للذات ، وبهذا انفصل عن المحقق من أهل الله صاحب الكشف والوجود » .

• قول ابن عربى فى الأعطيات الذاتية والأسمائية :

« ثم نرجع إلى الأعطيات فنقول : إنَّ الأعطيات إما ذاتية أو أسمائية ، فأما المنح والهبات والعطايا الذاتية فلا تكون أبداً إلا عن تجلى إلهى ، والتجلى من الذات لا يكون أبداً إلا لصورة استعداد العبد المتجلىَ له ، وغير ذلك لا يكون ، فإذن المتجلى له ما رأى سوى صورته فى مرآة الحق وما رأى الحق ولا يمكن أن يراه مع علمه أنه ما رأى صورته إلا فيه ، كالمرآة فى الشاهد إذا رأيتَ الصور فيها لا تراها مع علمك أنك ما رأيتَ الصور أو صورتك إلا فيها ، فأبرز الله ذلك مثالاً نصبه لتجليه الذاتى ، ليعلم المتجلَى له أنه ما رآه ، وما ثَمَّ أقرب ولا أشبه بالرؤية والتجلى من هذا ، واجهد فى نفسك عند ما ترى الصورة فى المرآة أن ترى جُرم المرآة لا تراه أبداً ألبتة ، حتى إنَّ بعض مَن أدرك مثل هذا فى صور المرئى ذهب إلى أنَّ الصورة المرئية بين بصر الرائى وبين المرآة ، هذا أعظم ما قدر عليه من العلم ، والأمر كما قلناه وذهبنا إليه . وقد بيَّنا

هذا فى « الفتوحات المكية » ، وإذا ذقتَ هذا ذقتَ الغاية التى ليس فوقها غاية فى حق المخلوق ، فلا تطمع ولا تتعب نفسك فى أن ترقى أعلا من هذا الدرج فما هو ثَمَّ أصلاً وما بعده إلا العدم المحض ، فهو مرآتك فى رؤيتك نفسك ، وأنت مرآته فى رؤيته أسماءه وظهور أحكامها ، وليست سوى عينه فاختلط الأمر وانبهم ، فمنا مَن جهل فى علمه فقال : « والعجز عن درك الإدراك إدراك » [1] ومنا مَن علم فلم يقل مثل هذا القول وهو أعلا القول ، بل أعطاه العلم السكوت ما أعطاه العجز ، وهذا هو أعلا عالِم باللّه » .

• تفضيل ابن عربى نفسه على الصدِّيق مطلقاً ، وعلى النبى صلى اللّه عليه وسلم مقيداً :

« وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء ، وما يراه أحد من الأنبياء والرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم ، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولى الخاتم ، حتى إنَّ الرسل لا يرونه متى رأوه إلا من مشكاة خاتم الأولياء ، فإنَّ الرسالة والنبوَّة - أعنى نبوَّة التشريع ورسالته - ينقطعان ، والولاية لا تنقطع أبداً . والمرسَلون من حيث كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء ، فكيف مَن دونهم من الأولياء ، وإن كان خاتم الأولياء تابعاً فى الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع ، فذلك لا يقدح فى مقامه ولا يناقض ما ذهبنا إليه ، فإنه من وجه يكون أنزل ، كما إنه من وجه يكون أعلا . وقد ظهر فى ظاهر شرعنا مايؤيد ماذهبنا إليه فى فضل عمر فى أُسارى بدر بالحكم فيهم ، وفى تأبير النخل . فما يلزم الكامل أن يكون له التقدم فى كل شئ وفى كل مرتبة . وإنما نظر الرجال إلى التقدم فى مرتبة العلم باللّه ، هنالك مطلبهم ، وأما حوادث الأكوان فلا تعلق لخواطرهم بها ، فتحقق ما ذكرناه » .

---

(١) هذا القول منسوب إلى الصدِّيق الأكبر أبى بكر رضى اللّه عنه ، وابن عربى يفضِّل نفسه عليه فى العلم باللّه كما ترى بعده ويدَّعى أنه مسارٍ لرسول اللّه ﷺ بل يفضِّل نفسه عليه من بعض الجهات .

• بيان ما فى هذا الفص من الكفر بالألوهية والربوبية والإزراء بالرسالة :

« ولما مثّل النبى ﷺ النبوّة بالحائط من اللّبن وقد كمل سوى موضع لَبِنة فكان النبى ﷺ تلك اللّبِنة ، غير أنه ﷺ لا يراها إلا كما قال لَبِنة واحدة . وأما خاتم الأولياء فلا بد له من هذه الرؤية ما مثّل به رسول الله ﷺ فيرى فى الحائط موضع لَبِنتين واللّبن من ذهب وفضة فيرى اللّبِنتين اللتين ينقص الحائط عنهما ويكمل بهما لَبِنة ذهب ولَبِنة فضة ، فلا بد من أن يرى نفسه تنطبع فى موضع تينك اللّبِنتين فيكون خاتم الأولياء تينك اللّبِنتين ، ليكمل الحائط .

« والسبب الموجب لكونه رآها لَبِنتين أنه تابع لشرع خاتم الرسل فى الظاهر ، وهو موضع اللّبِنة الفضة وهو ظاهره وما يتبعه فيه من الأحكام ، كما هو آخذ عن الله تعالى فى السر ما هو بالصورة الظاهرة متبع فيه ، لأنه رأى الأمر على ما هو عليه ، فلا بد أن يراه هكذا وهو موضع اللّبِنة الذهبية فى الباطن ، فإنه آخذ من المعدن الذى يأخذ منه المَلَك الذى يوحى به إلى الرسول .

« فإن فهمتَ ما أشرتُ به فقد حصل لك العلم النافع ، فكل نبى من لدن آدم إلى آخر نبى ما منهم أحد يأخذ إلا من مشكاة خاتم النبيين وإن تأخر وجود طينته ، فإنه بحقيقته موجود ، وهو قوله ﷺ : « كنتُ نبياً وآدم بين الماء والطين » ، وغيره من الأنبياء ما كان نبياً إلا حين بُعِث ، . وكذلك خاتم الأولياء كان ولياً وآدم بين الماء والطين ، وغيره من الأولياء ما كان ولياً إلا بعد تحصيله شرائط الولاية من الأخلاق الإلهية والاتصاف بها من أجل كون الله يسمى بالولى الحميد .

« فخاتم الرسل من حيث ولايته نسبته مع الختم للولاية مثل نسبة الأنبياء والرسل معه ، وأنه الولى الرسول النبى . وخاتم الأولياء الولى الوارث الآخذ عن الأصل المشاهد المراتب وهو حسنة من حسنات خاتم الرسل محمد ﷺ ، مقدّم الجماعة ، وسيد ولد آدم فى فتح باب الشفاعة . فعين بشفاعته حالاً خاصاً

ما عمَّم . وفى هذه الحال الخاص تقدم على الأسماء الإلهية . فإنَّ الرحمن ما شفع عند المنتقم فى أهل البلاء إلا بعد شفاعة الشافعين ، ففاز محمد بالسيادة فى هذا المقام الخاص .

فمَن فهم المراتب والمقامات لم يعسر عليه قبول مثل هذا الكلام » أ هـ .

*

● رد مذهب ابن عربى من وجوه :

فهذا الفص قد ذكر فيه حقيقة مذهبه التى يبنى عليها سائر كلامه فتدبر مافيه من الكفر الذى ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً ﴾ (١) وما فيه من جحد خلق الله وأمره ، وجحود ربوبيته وألوهيته وشتمه وسبه ، وما فيه من الإزراء برسله وصدِّيقيه والتقدم عليهم بالدعاوى الكاذبة ، التى ليس عليها حجة ، بل هى معلومة الفساد بأدنى عقل وإيمان ، وأيسر ما يُسمع من كتاب وقرآن ، وجعل الكفار والمنافقين والفراعنة هم أهل الله وخاصته أهل الكشوف .. وذلك باطل من وجوه :

أحدها : أنه أثبت له عيناً ثابتة قبل وجوده ولسائر الموجودات وأنَّ ذلك ثابت له ولسائر أحواله ، وكل ما كان موجوداً من الأعيان والصفات والجواهر والأعراض فعينه ثابتة قبل وجوده . وهذا ضلال قد سبق إليه كما تقدم .

الثانى : أنه جعل علم الله بالعبد إنما حصل له من علمه بتلك العين الثابتة فى العدم التى هى حقيقة العبد ، لا من نفسه المقدسة ، وأنَّ علمه بالأعيان الثابتة فى العدم وأحوالها تمنعه أن يفعل غير ذلك ، وأنَّ هذا هو سر القَدَر . فتضمن هذا وصف الله تعالى بالفقر إلى الأعيان وغناها عنه ، ونفى ما استحقه بنفسه من كمال علمه وقُدرته ، ولزوم التجهيل والتعجيز ، وبعض ما فى هذا

---

(١) مريم : ٩٠

الكلام المضاهاة لما ذكره الله عمن قال : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ ... الآية [1] ، فإنه جعل حقائق الأعيان الثابتة فى العدم غنية عن الله فى حقائقها وأعيانها ، وجعل الرب مفتقراً إليه فى علمه بها ، فما استفاد علمه بها إلا منها ، كما يستفيد العبد العلم بالمحسوسات ممن إدراكه لها ، مع غنى تلك المدركات عن المدرك . والمسلمون يعلمون أنَّ الله عالم بالأشياء قبل كونها بعلمه القديم الأزلى الذى هو من لوازم نفسه المقدسة لم يستفد علمه بها منها: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [2] فقد دلت هذه الآية على وجوب علمه بالأشياء من وجوه انتظمت البراهين المذكورة لأهل النظر والاستدلال القياسى العقلى من أهل الكلام والفلسفة وغيرهم .

أحدها : أنه خالق لها والخلق هو الإبداع بتقدير ، وذلك يتضمن تقديرها فى العلم قبل كونها فى الخارج .

الثانى : أنَّ ذلك مستلزم للإرادة والمشيئة ، والإرادة مستلزمة لتصور المراد والشعور به ، وهذه الطريقة المشهورة عند أكثر أهل الكلام .

الثالث : أنها صادرة عنه وهو سببها التام ، والعلم بأصل الأمر وسببه يوجب العلم بالفرع المسبب ، فعلمه بنفسه مستلزم العلم بكل ما يصدر عنه .

الرابع : أنه فى نفسه لطيف يدرك الدقيق ، خبير يدرك الخفى ، وهذا هو مقتضى العلم بالأشياء ، فيجب وجود المقتضى لوجود السبب التام ، فهو فى علمه بالأشياء مستغن بنفسه عنها كما هو غنى بنفسه فى جميع صفاته . ثم إذا رأى الأشياء بعد وجودها وسمع كلام عباده ونحو ذلك فإنما يدرك ما أبدع وما خلق وما هو مفتقر إليه ومحتاج من جميع وجوهه ، لم يحتج فى علمه وإدراكه إلى غيره ألبتة . فلا يجوز القول بأنَّ علمه بالأشياء استفاده من نفس الأشياء الثابتة الغنية فى ثبوتها عنه .

---

(١) آل عمران : ١٨١ (٢) الملك : ١٤

• ما تضمنه كلامه من جحود قُدرة الرب وتسميته بسر القَدَر :

وأما جحود قُدرته فلأنه جعل الرب لا يقدر إلا على تجليه فى تلك الأعيان الثابتة فى العدم الغنية عنه ، فقُدرته محدودة بها مقصورة عليها مع غناها عنه وثبوت حقائقها بدونه . وهذا عنده هو السر الذى أعجز اللّه أن يقدر على غير ما خلق ، فلا يقدر عنده على أن يزيد فى العالَم ذَرَّة ولا ينقص منه ذَرَّة ، ولا يزيد فى المطر قَطرة ولا ينقص منه قَطرة ، ولا يزيد فى طول الإنسان ولا ينقص منه ، ولا يغيِّر شيئاً من صفاته ولا حركاته ولا سكناته ، ولا ينقل حجراً عن مقره ، ولا يحول ماءً عن ممره ، ولا يهدى ضالاً ولا يضل مهتدياً ، ولا يحرك ساكناً ولا يسكن متحركاً . ففى الجملة لا يقدر إلا على ما وجد ، لأن ما وجد فعينه ثابتة فى العدم ولا يقدر على أكثر من ظهوره فى تلك الأعيان .

• ما انفرد به ابن عربى من الكفر الذى لم يُسبق إليه :

وهذا التجلى والتعجيز الذى ذكره وزعم أنه هو سر القَدَر وإن كان قد تضمن بعض ما قاله غيره من الضلال ففيه من الكفر ما لا يرضاه غيره من الضالين . فإنَّ القائلين بأنَّ المعدوم شئ ، يقولون ذلك فى كل ممكن كان أو لم يكن ، ولا يجعلون علمه بالأشياء مستفاداً من الأشياء قبل أن يكون وجودها ، ولا خلقه وقُدرته مقصورة على ما علمه منها ، فإنه يعلم أنواعاً من الممكنات لم يخلقها . فمعلومه من الممكنات أوسع مما خلقه ، ولا يجعلون المانع من أن يخلق غير ما خلق هو كون الأعيان الثابتة فى العدم لا تقبل سوى هذا الوجود ، بل يمكن عندهم وجودها على صفة أخرى ، هى أيضاً من الممكن الثابت فى العدم .

فلا يفضى قولهم لا إلى تجهيل ولا إلى تعجيز من هذا الوجه . وإنما قد يقولون : المانع من ذلك أنَّ هذا هو أكمل الوجوه وأصلحها ، فعلمه بأنه لا أكمل من هذا يمنعه أنْ يريد ما ليس أكمل بحكمته فيجعلون المانع أمراً يعود إلى نفسه المقدسة حتى لا يجعلونه ممنوعاً من غيره ، فأين مَن لا يجعل له مانعاً من غيره ولا رادّ لقضائه ممن يجعله ممنوعاً مصدوداً ؟ وأين مَن يجعله عالِماً بنفسه ممن

يجعله مستفيداً للعلم من غيره ؟ وممن هو غنى عنه ؟ هذا مع أنَّ أكثر الناس أنكروا على مَن قال : ليس فى الإمكان أبدع من هذا العالَم .

الثالث : أنه زعم أنَّ من الصنف الذى جعله أعلا أهل اللّه مَن يكون فى علمه بمنزلة علم اللّه ، لأنَّ الأخذ من معدن واحد إذا كُشفَ له عن أحوال الأعيان الثابتة فى العدم فيعلمها من حيث علمها اللّه ، إلا أنه من جهة العبد عناية من اللّه سبقت له هى من جملة أحوال عينه يعرفها صاحب هذا الكشف إذا أطلعه اللّه على ذلك فجعل علمه وعلم اللّه من معدن واحد .

الرابع : أنه جعل اللّه عالماً بها بعد أن لم يكن عالماً واتبع المتشابه الذى هو قوله : « حتى يعلم » وزعم أنها كلمة محققة المعنى بناءً على أصله الفاسد أنَّ وجود العبد هو عين وجود الرب ، فكل مخلوق عَلِمَ ما لم يكن علمه فهو اللّه علم ما لم يكن علمه . وهذا الكفر ما سبقه إليه كافر ، فإنَّ غاية المكذِّب بقَدَر اللّه أن يقول : إنَّ اللّه عَلِمَ ما لم يكن عالماً ، أما أنه يجعل كل ما تجدد لمخلوق من العلم فإنما تجدد للّه ، وأنَّ اللّه لم يكن عالماً بما علمه كل مخلوق حتى علمه ذلك المخلوق .

الخامس : أنه زعم أنَّ التجلى الذاتى بصورة استعداد المتجلى ، والمتجلَى له ما رأى سوى صورته فى مرآة الحق ، وأنه لا يمكن أن يرى الحق مع علمه بأنه ما رأى صورته إلا فيه ، وضرب المثل بالمرآة فجعل الحق هو المرآة والصورة فى المرآة هى صورته .

● ملخص مذهب ابن عربى مع بيان كفره وبطلانه :

وهذا تحقيق ما ذكرته من مذهبه : أنَّ وجود الأعيان عنده وجود الحق ، والأعيان كانت ثابتة فى العدم ، فظهر فيها وجود الحق بالمتجلَى له ، والعبد لا يرى الوجود مجرداً عن الذوات ، ما يرى إلا الذوات التى ظهر فيها الوجود ، فلا سبيل له إلى رؤية الوجود أبداً . وهذا عنده هو الغاية التى ليس فوقها غاية فى حق المخلوق وما بعده إلا العدم المحض ، فهو مرآتك فى رؤيتك نفسك ، وأنت مرآته فى رؤيته أسماءه وظهور أحكامها . وذلك لأنَّ العبد لا يرى نفسه

التى هى عينه إلا فى وجود الحق الذى هو وجوده ، والعبد مرآته فى رؤيته أسماءه وظهور أحكامها ، لأنَّ أسماء الحق عنده هى النسب والإضافات التى بين الأعيان وبين وجود الحق ، وأحكام الأسماء هى الأعيان الثابتة فى العدم ، وظهور هذه الأحكام بتجلى الحق فى الأعيان ، والأعيان التى هى حقيقة العيان هى مرآة الحق التى بها يرى أسماءه وظهور أحكامها ، فإنه إذا ظهر فى الأعيان حصلت النسبة التى بين الوجود والأعيان وهى الأسماء ، وظهرت أحكامها وهى الأعيان ، ووجود هذه الأعيان هو الحق ، فلهذا قال : وليست سوى عينه ، فاختلط الأمر وانبهم .

فتدبر هذا من كلامه وما يناسبه لتعلم ما يعتقده من ذات الحق وأسمائه ، وأنَّ ذات الحق عنده هى نفس وجود المخلوقات ، وأسماءه هى النسب التى بين الوجود والأعيان ، وأحكامها هى الأعيان . لتعلم كيف اشتمل كلامه على الجحود للّه ولأسمائه ولصفاته وخلقه وأمره ، وعلى الإلحاد فى أسماء اللّه وآياته، فإنَّ هذا الذى ذكره غاية الإلحاد فى أسماء اللّه وآياته - الآيات المخلوقة والآيات المتلوة - فإنه لم يثبت له اسماً ولا آية ، إذ ليس إلا وجوداً واحداً وذاك ليس هو اسماً ولا آية ، والأعيان الثابتة ليست هى أسماءه ولا آياته ، ولما ثبت شيئين فرَّق بينهما الوجود والثبوت ، وليس بينهما فرق ، اختلط الأمر عليه وانبهم .

• دعوى ابن عربى أنَّ المرسلين يأخذون من مشكاته :

وهذا حقيقة قوله وسر مذهبه الذى يدَّعى أنه به أعلم العالَم باللّه ، وأنه تقدَّم بذلك على الصدِّيق الذى جهل فقال : العجز عن الإدراك إدراك ، وتقدَّم به على المرسلين الذين علموا ذلك من مشكاته [1] ، وفيه من أنواع الكفر والضلال

---

(١) لأنه يدَّعى أنه هو ختم الولاية ، وأنَّ خاتم الولاية أعلى من خاتم النبوَّة فى الباطن ، وإن كان يتبعه فى الظاهر ، إلى آخر ما تقدم ، وغايته أنه بلغ من غروره بما حذقه من الثرثرة بخلط النظريات الفلسفية بالخيالات الصوفية إن حاول إقناع قراء فصوصه بأنه رب العالمين من حيث أنه أكمل مظهر للخلق الذى هو عين الحق ، وما الرب عنده إلا نسبة إضافية بين ما يسمى حقاً وما يسمى خلقاً وهما فى نفس الأمر بشىء واحد .

ما يطول عدها . منها : الكفر بذات الله إذ ليس عنده إلا وجود المخلوق ، ومنها : الكفر بأسماء الله وأنها ليست عنده إلا أمور عدميه ، فإذا قلنا : ﴿ الحَمْدُ للّه رَبِّ العَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فليس الرب عنده إلا نسبة إلى .....[1] .

السادس : أنه قال : « واختلط الأمر وانبهم » ، أو هو على أصله الفاسد مختلط منبهم ، وعلى أصل الهدى والإيمان متميز متبين ، قد بيَّن الله بكتابه الحق من الباطل والهدى من الضلال .

• كذب الجاهلين على آل البيت والصحابة فى النقل :

قال : « فمنا مَن جهل علمه فقال : العجز عن درك الإدراك إدراك » ، وهذا الكلام مشهور عندهم نسبته إلى أبى بكر الصدِّيق ، فجعله جاهلاً وإن كان هذا اللفظ لم يُنقل عن أبى بكر ولا هو مأثور عنه فى شئ من النقول المعتمدة ، وإنما ذكر ابن أبى الدنيا فى كتاب « الشكر » نحواً من ذلك عن بعض التابعين غير مسمى ، وإنما يرسل إرسالاً من جهة مَن يكثر الخطأ فى مراسليهم ، كما يحكون عن عمر أنه قال : « كان النبى ﷺ وأبو بكر إذا تخاطبا كنتُ كالزنجى بينهما ». وهذا أيضاً كذب باتفاق أهل المعرفة ، وإنما الذى فى الصحيح عن أبى سعيد الخدرى قال : خطبنا رسول ﷺ على المنبر فقال : « إنَّ عبداً خيَّره الله بين الدنيا والآخرة فاختار ذلك العبد ما عند الله » ، فبكى أبو بكر فقال : بل نفديك بأنفسنا وأموالنا - أو كما قال - فجعل الناس يقولون : عجباً لهذا الشيخ ، يبكى أن ذكر رسول الله ﷺ عبداً خيَّره الله بين الدنيا والآخرة . فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر وكان أبو بكر هو أعلمنا به . وكان أبو بكر هو أعلمهم بمراد رسول ﷺ ومقاصده فى كلامه . وإن كانوا كلهم مشتركين فى فهمه .

وهذا كما فى الصحيح أنه قيل لعلىٍّ عليه السلام : هل ترك عندكم رسول الله ﷺ شيئاً ؟ - وفى لفظ : هل عهد إليكم رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده

---

(١) بياض فى الأصل يُعلم ما سقط منه مما تقدم .

إلى الناس ؟ فقال : « لا والذى فلق الحبة وبرأ النَسمة ، إلا فهماً يؤتيه اللّه عبداً فى كتابه ، وما فى هذه الصحيفة » [1] ، وبهذا ونحوه من الأحاديث الصحيحة استدل العلماء على أنَّ ما يُذكر عن علىّ وأهل البيت من أنهم اختُصوا بعلم خصَّهم به النبى ﷺ دون غيرهم كذب عليهم ، مثل ما يذكر من الجفر والبطاقة والجدول ، وغير ذلك وما يأثره القرامطة الباطنية عنهم ، فإنه قد كُذِبَ على جعفر الصادق رضى اللّه عنه ما لم يُكذَب على غيره . وكذلك كُذِبَ على علىٍّ عليه السلام وغيره من أئمة أهل البيت رضى اللّه عنهم ، كما قد بُيِّنَ هذا وبُسِطَ فى غير هذا الموضع .

وهكذا يكذب قوم من النُسَّاك ومدعى الحقائق على أبى بكر وغيره وأنَّ النبى ﷺ كان يخاطبه بحقائق لا يفهمها عمر مع حضوره . ثم قد يدَّعون أنهم عرفوها وتكون حقيقتها زندقة وإلحاداً . وكثير من هؤلاء الزنادقة والجُهَّال قد يحتج على ذلك بحديث أبى هريرة : « حفظتُ عن رسول اللّه ﷺ جرابين ، أما أحدهما فبثثته فيكم . وأما الآخر فلو بثثته لقطعتم هذا الحلقوم » وهذا الحديث صحيح ، لكن الجراب الآخر لم يكن فيه شئ من علم الدين ومعرفة اللّه وتوحيده الذى يختص به أولياؤه ، ولم يكن أبو هريرة من أكابر الصحابة الذين يُخَصون بمثل ذلك لو كان هذا يُخَص به ، بل كان فى ذلك الجراب أحاديث الفتن التى تكون بين المسلمين ، فإنَّ النبى ﷺ أخبرهم بما سيكون من الفتن بين المسلمين ، ومن الملاحم التى تكون بينهم وبين الكفار .

ولهذا لما كان مقتل عثمان وفتنة ابن الزبير ونحو ذلك قال ابن عمر : لو أخبركم أبو هريرة أنكم تقتلون خليفتكم وتهدمون البيت [2] وغير ذلك لقلتم :

---

(١) هى صحيفة علقها فى سيفه كتب فيها عن النبى ﷺ أحكام الدية وفكاك الأسير وتحريم المدينة .

(٢) بل قال أبو هريرة نفسه : لو قلتُ لكم إنكم ستحرقون بيت ربكم وتقتلون ابن نبيكم لقلتم لا أكذب من أبى هريرة . وقد كان قتل الحسين عليه السلام بعد موت أبى هريرة ، وإنما كان يخاف قطع حلقومه من بنى أمية .

كذب أبو هريرة ، فكان أبو هريرة يمتنع من التحديث بأحاديث الفتن قبل وقوعها لأنَّ ذلك مما لا يحتمله رءوس الناس وعوامهم . وكذلك يحتجون بحديث حذيفة بن اليمان وأنه صاحب السر الذى لا يعلمه غيره ، وحديث حذيفة معروف ، لكن السر الذى لا يعلمه غيره هو معرفته بأعيان المنافقين الذين كانوا فى غزوة تبوك . ويقال : إنهم كانوا هموا بالفتك بالنبى ﷺ فأُوحِيَ إلى النبى ﷺ أمرهم ، فأخبر حذيفة بأعيانهم . ولهذا كان عمر لا يُصلِّى إلا على مَن صلى عليه حذيفة ، لأنَّ الصلاة على المنافقين منهى عنها .

• كان سر النبى ﷺ كعلانيته ، وما أخبر به حذيفة :

وقد ثبت فى الصحيح عن حذيفة أنه لما ذكر الفتن وأنه أعلم الناس بها بيَّن أنَّ النبى ﷺ لم يخصه بحديثها ولكن حدَّث الناس كلهم ، قال : « وكان أعلمنا أحفظنا » .

ومما يبيِّن هذا فى السُنَن أنَّ النبى ﷺ كان عام الفتح قد أهدر دم جماعة : منهم عبد اللّه بن أبى سرح ، فجاء به عثمان إلى النبى ﷺ ليبايعه ، فتوقف عنه النبى ﷺ ساعة ، ثم بايعه وقال : « أما كان فيكم رجل رشيد ينظر إلىَّ وقد أمسكتُ عن هذا فيضرب عنقه » ؟ فقال رجل من الأنصار : يا رسول اللّه ، هلاَّ أومأتَ إلىَّ ؟ فقال : « ما ينبغى لنبى أن تكون له خائنة الأعين » ، فهذا ونحوه مما يبيِّن أنَّ النبى ﷺ يستوى ظاهره وباطنه ، لا يُظهر للناس خلاف ما يُبطنه ، كما تدعيه الزنادقة من المتفلسفة والقرامطة وضُلاَّل المتنسكة ونحوهم .

• كلام ابن عربى فى خاتم النبوَّة وخاتم الولاية :

السابع : أنه قال : « ومنا مَن عَلِمَ فلم يقل مثل هذا ، وهو أعلى القول ، بل أعطاه العلم والسكوت ما أعطاه العجز . وهذا هو أعلا عالِم باللّه . وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء ، وما يراه أحد من الأولياء والرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم ، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولى

الخاتم . حتى إنَّ الرسل لا يرونه متى رأوه إلا من مشكاة خاتم الأولياء . فإنَّ الرسالة والنبوَّة - أعنى نبوَّة التشريع ورسالته - ينقطعان ، والولاية لا تنقطع أبداً . فالمرسلون من كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء ، فكيف مَن دونهم من الأولياء ؟ وإن كان خاتم الأولياء تابعاً فى الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع ، فذلك لا يقدح فى مقامه ولا يناقض ما ذهبنا إليه ، فإنه من وجه يكون أنزل ، كما أنه من وجه يكون أعلا » ... إلى قوله : « ولما مثَّل النبى ﷺ النبوَّة بالحائط من اللَّبن ... » .

ففى هذا الكلام من أنواع الإلحاد والكفر وتنقيص الأنبياء والرسل ما لا تقوله لا اليهود ولا النصارى . وما أشبهه فى هذا الكلام بما ذُكِرَ فى قول القائل : « فخَرَّ عليهم السقف من تحتهم » إنَّ هذا لا عقل ولا قرآن . وكذلك ما ذكره هنا من أنَّ الأنبياء والرسل تستفيد من خاتم الأولياء الذى بعدهم هو مخالف للعقل ، فإنَّ المتقدم لا يستفيد من المتأخر . ومخالف للشرع ، فإنه معلوم بالاضطرار من دين الإسلام أنَّ الأنبياء والرسل أفضل من الأولياء الذين ليسوا أنبياء ولا رسلاً . وقد يزعم أنَّ هذا العِلم الذى هو عنده أعلى العِلم - وهو القول بوحدة الوجود ، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق - وهو تعطيل الصانع حقيقة وجحده ، وهو القول الذى يظهره فرعون . فلم يكفه زعمه أنَّ هذا حق ، حتى زعم أنه أعلا العِلم ، ولم يكفه ذلك حتى زعم أنَّ الرسل إنما يرونه من مشكاة خاتم الأولياء . فجعل خاتم الأولياء أعلم باللّه من جميع الأنبياء والرسل ، وجعلهم يرون العلم با للّه من مشكاته .

ثم أخذ يبيِّن ذلك فقال : « فإنَّ الرسالة والنبوَّة - أعنى نبوَّة التشريع ورسالته - ينقطعان ، والولاية لا تنقطع أبداً . فالمرسلون من كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء » ، وذلك أنه لم يمكنهم أن يجعلوا بعد النبى ﷺ

نبياً ورسولاً فإنَّ هذا كفر ظاهر ، فزعموا أنه إنما تنقطع نبوَّة التشريع ورسالته ، يعنى وأما نبوَّة التحقيق ورسالة التحقيق - وهى الولاية عندهم - فلم تنقطع ، وهذه الولاية عندهم هى أفضل من النبوَّة والرسالة ، ولهذا قال ابن عربى فى بعض كلامه :

مقام النبـــوَّة فـــى برزخ فويق الرسول ودون الولى

وقال فى الفصوص فى « كلمة عزيرية » : « فإذا سمعتَ أحداً من أهل الله تعالى يقول أو يُنقل إليك عنه أنه قال : الولاية أعلى من النبوَّة ، فليس يريد ذلك القائل إلا ما ذكرناه ، أو يقول : إنَّ الولى فوق النبى والرسول ، فإنه يعنى بذلك فى شخص واحد ، وهو أنَّ الرسول عليه السلام من حيث هو ولى أتم منه من حيث هو نبى ورسول ، لا أنَّ الولى التابع له أعلا منه ، فإنَّ التابع لا يدرك المتبوع أبداً فيما هو تابع له فيه [1] ، إذ لو أدركه لم يكن تابعاً له » . وإذا حوققوا على ذلك قالوا : إنَّ ولاية النبى فوق نبوَّته ، وإن نبوَّته فوق رسالته ، لأنه يأخذ بولايته عن الله ، ثم يجعلون مثل ولايته ثابته لهم ، ويجعلون ولاية خاتم الأولياء أعظم من ولايته ، وأنَّ ولاية الرسول تابعة لولاية خاتم الأولياء الذى ادعوه .

• ما أخطأ فيه الحكيم الترمذى فى فرية خاتم الأولياء :

وفى هذا الكلام أنواع قد بيَّناها فى غير هذا الموضع ..

منها : أنَّ دعوى المدَّعى وجود خاتم الأولياء على ما ادعوه باطل لا أصل له ، ولم يذكر هذا أحد من المعروفين قبل هؤلاء إلا أبو عبد الله محمد بن على

---

(١) بهامش الأصل ما نصه : قوله : « فيما هو تابع له فيه » ، كأنه يريد ما يزعم من أنه تابع للنبى ﷺ فى الشرع الظاهر . وأما الباطن فلا ، لأنه يزعم أنَّ خاتم الأنبياء وجميع الأنبياء والرسل يأخذون من مشكاته ، فهو عند نفسه أعلى منهم فى ذلك . قبَّحه الله . انتهى من خط الشيخ أحمد ابن إبراهيم بن عيسى رحمه الله .

الترمذى الحكيم [1] فى كتاب « ختم الولاية » ، وقد ذكر فى هذا الكتاب ما هو خطأ وغلط مخالف للكتاب والسُنَّة والإجماع ، وهو رحمه الله تعالى وإن كان فيه فضل ومعرفة ومن الكلام الحسن المقبول والحقائق النافعة أشياء محمودة ، ففى كلامه من الخطأ ما يجب رده ومن أشنعها ما ذكره فى ختم الولاية ، مثل دعواه فيه أنه يكون فى المتأخرين مَن درجته عند الله أعظم من درجة أبى بكر وعمر وغيرهما. ثم إنه تناقض فى موضع آخر لما حكى عن بعض الناس أنَّ الولى يكون منفرداً عن الناس ، فأبطل ذلك واحتج بأبى بكر وعمر وقال : يلزم هذا أن يكون أفضل من أبى بكر وعمر ، وأبطل ذلك .

ومنها : أنه ذكر فى كتابه ما يُشعر أنَّ ترك الأعمال الظاهرة ولو أنها التطوعات المشروعة أفضل فى حق الكامل ذى الأعمال القلبية ، وهذا أيضاً

---

(١) الحكيم الترمذى - وهو غير الترمذى المحدِّث - : محمد بن على ، فقيه ومتصوف ومحدِّث خراسانى ، ألَّف كتاب « ختم الولاية » فنفى من ترمذ واتهم بالزندقة ، له « الرياضة وأدب النفس » و « نوادر الأصول فى معرفة أخبار الرسول » ، و « النهج » - توفى عام ٣٢٠ هـ .

وكان الترمذى أول مَن عقد مقارنة بين النبوَّة والولاية ، متأثراً بما اطلع عليه من مسائل اللاهوت والفلسفة ، وقد انتهت أبحاثه ومقارناته إلى اختراع ضخم هو القول بوجود « خاتم الأولياء » ، ولذلك وقفت الولاية بجوار النبوَّة بهذا اللقب الذى يعادل صفة « خاتم النبيين » ، وقد احتاط الترمذى فاختار لمقام ختم الولاية عيسى عليه السلام .

ولم يكد هذا الاختراع يستقر فى الأرض حتى تهافت الصوفية عليه من كل حدب ، مدعياً كل منهم حقه فى أن يكون هو « خاتم الأولياء » هذا !

وقد خشى ابن عربى أن تفلت منه هذه الدرجة ، فلم ينقطع عن التأكيد لأتباعه بأنه المختص من دون الناس بهذا المقام ، وزعم أنه أُقيم له فى هذه المناسبة حفل كبير ، نُصِبَ له فيه كرسى بين يدى الله ، ومن حوله عظماء الملائكة والأنبياء ... إلى آخر هذا الهذيان !!

وكان إبراهيم الدسوقى يقول - كما حكى عنه الشعرانى - : « أنا موسى فى مناجاته ، وأنا علىّ فى حملاته ، أنا كل ولى فى الأرض ، أنا فى السماء شاهدتُ ربى ، وعلى الكرسى خاطبته » .. وهكذا ... إلى أن زعم أن رسول الله ﷺ قال له : « يا إبراهيم ، أنت نقيب على الأولياء » !

(البلتاجى)

خطأ عند أئمة الطريق ، فإنَّ أكمل الخلق رسول الله ﷺ ، وخير الهَدى هَدى محمد ﷺ ، وما زال محافظاً على ما يمكنه من الأوراد والتطوعات البدنية إلى مماته .

ومنها : ما ادعاه من خاتم الأولياء الذى يكون فى آخر الزمان وتفضيله وتقديمه على مَن تقدم من الأولياء ، وأنه يكون معهم كخاتم الأنبياء مع الأنبياء ، وهذا ضلال واضح . فإنَّ أفضل أولياء الله من هذه الأمة أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ وأمثالهم من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، كما ثبت ذلك بالنصوص المشهورة . وخير القرون قرنه ﷺ كما فى الحديث الصحيح : « خير القرون القرن الذين بعثتُ فيهم ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » ، وفى الترمذى وغيره أنه قال فى أبى بكر وعمر : « هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين » . قال الترمذى : حديث حسن ، وفى صحيح البخارى عن علىّ عليه السلام أنه قال له ابنه : يا أبت ، مَن خير الناس بعد رسول الله ﷺ ؟ فقال : « يا بنى ، أبو بكر » قال : ثم مَن ؟ قال : « ثم عمر » ، وروى بضع وثمانون نفساً عنه أنه قال : « خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر » .

وهذا باب واسع وقد قال تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ (١) ، وهذه الأربعة هى مراتب العباد : أفضلهم الأنبياء ثم الصدِّيقون ثم الشهداء ثم الصالحون . وقد نهى النبى ﷺ أن يُفَضِّل أحد منا نفسه على يونس بن متى مع قوله : ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ (٣) ، تنبيهاً على أنَّ غيره أولى أن لا يُفَضِّل أحدٌ نفسه عليه . ففى صحيح البخارى عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : « لا يقولن أحدكم أنى خير من يونس بن متى » ،

---

(١) النساء : ٦٩ (٢) القلم : ٤٨ (٣) الصافات : ١٤٢

وفى صحيح البخارى أيضاً عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما ينبغى لعبد أن يكون خيراً من يونس بن متى » - وفى لفظ : « أن يقول : أنا خير من يونس ابن متى » ، وفى البخارى أيضاً عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « مَن قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب » ، وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال - يعنى رسول اللّه - : « لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » وفى الصحيحين عن ابن عباس عن النبى ﷺ - وفى لفظ : فيما يرويه عن ربه : « لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » ... وهذا فيه نهى عام .

وأما ما يرويه بعض الناس : « لا تُفضِّلونى على يونس بن متى » ويفسره باستواء حال صاحب المعراج وصاحب الحوت ، فنقل باطل وتفسير باطل . وقد قال النبى ﷺ : « اثبت حِراء ، فما عليك إلا نبى أو صِدِّيق أو شهيد » وأبو بكر أفضل الصِدِّيقين .

• بيان كلام اللّه ورسوله لأولياء اللّه ودرجاتهم :

ولفظ خاتم الأولياء لا يوجد فى كلام أحد من سَلَف الأمة ولا أئمتها ، ولا له ذكر فى كتاب اللّه ولا سُنَّة رسوله . وموجب هذا اللفظ أنه آخر مؤمن تقى ، فإنّ اللّه يقول : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللّه لَا خَوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ... الآية [1] فكل مَن كان مؤمناً « تقياً » كان للّه ولياً ، وهم على درجتين : السابقون المقرَّبون ، وأصحاب اليمين المقتصدون ، كما قسَّمهم اللّه تعالى فى سورة فاطر ، وسورة الواقعة ، والإنسان ، والمطففين .

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « يقول اللّه تعالى : مَن عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة ، وما تقرَّب إلىَّ عبدى بمثل

---

(١) يعنى الآية التى بعد هذه المفسرة للأولياء : بالمؤمنين المتقين - والآية من سورة يونس : ٦٢

أداء ما افترضتُ عليه ، وما يزال عبدى يتقرَّب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وما ترددتُ عن شئ أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت واكره مساءته ، ولا بد له منه » ، فالمتقربون إلى الله بالفرائض هم الأبرار المقتصدون أصحاب اليمين ، والمتقربون إليه بالنوافل التى يحبها بعد الفرائض هم السابقون المقرَّبون ، وإنما تكون النوافل بعد الفرائض . وقد قال أبو بكر الصدِّيق فى وصيته لعمر بن الخطاب : « اعلم أنَّ لله عليك حقاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وحقاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وأنها لا تُقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة » .

والاتحادية يزعمون أنَّ قُرَب النوافل يوجب أن يكون عين الحق عين أعضائه ، وأنَّ قُرَب الفرائض يوجب أن يكون الحق عين وجوده كله . وهذا فاسد من وجوه كثيرة ، بل كفر صريح كما بيَّناه فى غير هذا الموضع . وإذا كان خاتم الأولياء آخر مؤمن تقى فى الدنيا ، فليس ذلك الرجل أفضل الأولياء ولا أكملهم ، بل أفضلهم وأكملهم سابقوهم الذين هم أخص بأفضل الرسل من غيرهم ، فإنه كلما كان الولى أعظم إختصاصاً بالرسول وأخذاً عنه وموافقة له كان أفضل ، إذ الولى لا يكون ولياً لله إلا بمتابعة الرسول باطناً وظاهراً . فعلى قَدْرِ المتابعة للرسول يكون قَدْر الولاية لله .

• أبو بكر فعمر أفضل الأولياء ، وإلهام عمر وعدم عصمته :

والأولياء وإن كان فيهم محدَّث كما ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « إنه كان فى الأمم قبلكم محدَّثون ، فإن يكن فى أُمتى فعمر » ، فهذا الحديث يدل على أنَّ أول المحدَّثين من هذه الأمة عمر ، وأبو بكر أفضل منه ، إذ هو الصدِّيق والمحدَّث ، وإن كان يُلهم ويُحدَّث من جهة الله تعالى فعليه أن يعرض ذلك على الكتاب والسُنَّة فإنه ليس بمعصوم كما قال أبو الحسن الشاذلى : قد ضُمِنَتْ لنا العصمة فيما جاء به الكتاب والسُنَّة ولم تُضمن لنا العصمة فى

الكشوف والإلهام . ولهذا كان عمر بن الخطاب وقّافاً عند كتاب اللّه ، وكان أبو بكر الصدِّيق يبيِّن أشياء تخالف ما يقع له كما بُيِّنَ له يوم الحديبية ويوم موت النبى ﷺ ويوم قتال مانعى الزكاة وغير ذلك ، وكان عمر بن الخطاب يشاور الصحابة ، فتارة يرجع إليهم وتارة يرجعون إليه ، وربما قال القول وترد عليه امرأة من المسلمين قوله وتبيِّن له الحق فيرجع إليها ويدع قوله كما قدِّر الصداق ، وربما يرى رأياً فيُذكر له حديث عن النبى ﷺ فيعمل به ويدع رأيه ، وكان يأخذ بعض السُنَّة عمن هو دونه فى قضايا متعددة ، وكان يقول القول فيقال له : أصبتَ فيقول : ما يدرى عمر أصاب الحق أم أخطأه . فإذا كان هذا إمام المحدَّثين ، فكل ذى قلب يحدِّثه قلبه عن ربه إلى يوم القيامة هو دون عمر ، فليس فيهم معصوم ، بل الخطأ يجوز عليهم كلهم وإن طائفة تدَّعى أنَّ الولى محفوظ وهو نظير ما يثبت للأنبياء من العصمة ، والحكيم الترمذى قد أشار إلى هذا - فهذا باطل مخالف للسُنة والإجماع ، ولهذا اتفق المسلمون على أنَّ كل أحد من الناس يُؤخذ من قوله ويُترك إلا رسول اللّه ﷺ وإن كانوا متفاضلين فى الهُدى والنور والإصابة ، ولهذا كان الصدِّيق أفضل من المحدَّث ، لأن الصدِّيق يأخذ من مشكاة النبوَّة فلا يأخذ إلا شيئاً معصوماً محفوظاً ، وأما المحدَّث فيقع له صواب وخطأ ، والكتاب والسُنَّة تميِّز صوابه من خطئه . وبهذا صار جميع الأولياء مفتقرين إلى الكتاب والسُنَّة ، لا بد لهم أن يزنوا جميع أمورهم بآثار الرسول ، فما وافق آثار الرسول فهو الحق ، وما خالف ذلك فهو باطل وإن كانوا مجتهدين فيه ، واللّه تعالى يثيبهم على اجتهادهم ويغفر لهم خطأهم .

ومعلوم أنَّ السابقين الأولين أعظم اهتداءً واتباعاً للآثار النبوية ، فهم أعظم إيماناً وتقوى . وأما آخر الأولياء ، فلا يحصل له مثل ما حصل لهم .

والحديث الذى يروى : « مَثَل أُمتى كمثل الغيث لا يُدرى أوله خير أو آخره » قد تكلم فى إسناده ، وبتقدير صحته إنما معناه بما فى آخر الأمة مَن يقارب

أولها [1] ، حتى يشتبه على بعض الناس أيهما خير كما يشتبه على بعض الناس طرفا الثوب . مع القطع بأنَّ الأول خير من الآخر ولهذا قال : « لا يُدرى » ومعلوم أنَّ هذا السلب ليس عاماً لها فإنه لا بد أن يكون معلوماً أيهما أفضل .

• إدعاء مرتبة خاتم الأولياء الوهمية كثير من المضلين :

ثم إنَّ هذا خاتم الأولياء صار مرتبة موهومة لا حقيقة له ، وصار يدَّعيها لنفسه أو لشيخه طوائف ، وقد ادعاها غير واحد ولم يدعها إلا مَن فى كلامه من الباطل ما لم تقله اليهود ولا النصارى ، كما ادعاها صاحب الفصوص ، وتابعه صاحب الكلام فى الحروف ، وشيخ من أتباعهم كان بدمشق ، وآخر كان يزعم أنه المهدى الذى يزوج بنته بعيسى ابن مريم ، وأنه خاتم الأولياء . ويدَّعى هؤلاء وأمثالهم من الأمور ما لا يصلح إلا للّه وحده ، كما قد يدَّعى المدَّعى منهم لنفسه أو لشيخه ما ادعته النصارى فى المسيح .

• بطلان زعمهم أنَّ الولى يأخذ عن اللّه بلا واسطة :

ثم صاحب الفصوص وأمثاله بنوا الأمر على أنَّ الولى يأخذ عن اللّه بلا واسطة ، والنبى يأخذ بواسطة المَلَك ، فلهذا صار خاتم الأولياء أفضل عندهم من هذه الجهة ، وهذا باطل وكذب ، فإنَّ الولى لا يأخذ عن اللّه إلا بواسطة الرسول إليه ، وإذا كان محدَّثاً قد أُلقى إليه شئ وجب عليه أن يزنه بما جاء به الرسول من الكتاب والسُّنَّة .

وتكليم اللّه لعباده على ثلاثة أوجه : من وراء حجاب - كما كلَّم موسى ، وبإرسال رسول - كما أرسل الملائكة إلى الأنبياء ، وبالإيحاء ، وهذا فيه للولى نصيب ، وأما المرتبتان الأوليان فإنهما للأنبياء خاصة ، والأولياء الذين قامت

---

(١) فيه معنى آخر ، وهو أنَّ هذا الخير فى المتأخر نسبى وهو أنَّ القليل منه يُعَدُّ كثيراً بالنسبة إلى فساد زمنه . ويدل عليه أحاديث : منها أنه عندما يجاهر الناس بالزنا فى الطرق يقول قائلهم : ما ضرَّ هذين لو استترا وراء هذا الجدار - وهو يُعد كأبى بكر وعمر فيكم .

عليهم الحُجَّة بالرسل لا يأخذون علم الدين إلا بتوسط رسل الله اليهم ، ولو لم يكن إلا عرضه على ما جاء به الرسول [1] ، ولن يصلوا فى أخذهم عن الله إلى مرتبة نبى أو رسول ، فكيف يكونون آخذين عن الله واسطة ويكون هذا الأخذ أعلى وهم لا يصلون إلى مقام تكليم موسى ولا إلى مقام نزول الملائكة عليهم كما نزلت على الأنبياء ، وهذا دين المسلمين واليهود والنصارى .

وأما هؤلاء الجهمية الاتحادية .. فبنوا على أصلهم الفاسد : أنَّ الله هو الوجود المطلق الثابت لكل موجود ، وصار ما يقع فى قلوبهم من الخواطر - وإن كانت من وساوس الشيطان - يزعمون أنهم أخذوا ذلك عن الله بلا واسطة . وأنهم يكلَّمون كما كُلِّم موسى بن عمران ، وفيهم مَن يزعمون أنَّ حالهم أفضل من حال موسى بن عمران ، لأنَّ موسى سمع الخطاب من الشجرة وهم - على زعمهم - يسمعون الخطاب من حى ناطق .. كما يُذكر عن صاحب الفصوص أنه قال :

وكل كلام فى الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

• إثبات أهل السُنَّة رؤية الرب فى الآخرة ، ومخالفة الجهمية والاتحادية :

وأعانهم على ذلك ما اعتقدوه من مذاهب الجهمية وأتباعهم الذين يزعمون أنَّ تكليم الله لموسى إنما كان من جنس الإلهام ، وأنَّ العبد قد يرى الله فى الدنيا إذا زال عن عينه المانع إذ لا حجاب عندهم للرؤية منفصل عن العبد ، وإنما الحجاب متصل به ، فإذا ارتفع شاهَدَ الحق ، وهم لا يشاهدون إلا ما يتمثلونه من الوجود المطلق الذى لا حقيقة له إلا فى أذهانهم ، ومن الوجود المخلوق . فيكون الرب المشهود عندهم الذى يخاطبهم - فى زعمهم - لا وجود له إلا فى

---

(١) كذا .. ولعل جواب « لو » سقط من الناسخ أو حُذِفَ للعلم به . وفيه أنهم يعترفون بهذا الأخذ لأحكام التشريع الظاهرة دون الحقائق الباطنة التى يدَّعونها ويُطلقونها على فلسفتهم وخيالاتهم الباطلة .

أذهانهم أو لا وجود له إلا وجود المخلوقات . هذا هو التعطيل للرب تعالى ولكتبه ولرسله ، والبدع دهليز الكفر والنفاق ، كما أنَّ التشيع دهليز الرفض ، والرفض دهليز القرمطة والتعطيل ، فالكلام الذى فيه تجهم دهليز الزندقة والتعطيل . وقد ثبت فى صحيح مسلم عن النبى ﷺ أنه قال : « واعلموا أنَّ أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت » ، ولهذا اتفق سَلَف الأُمة وأئمتها على أنَّ اللّه يُرى فى الآخرة ، وأنه لا يراه أحد فى الدنيا بعينه .

وفى رؤية النبى ﷺ ربه كلام معروف لعائشة وابن عباس ، فعائشة أنكرت الرؤية ، وابن عباس ثبت عنه فى صحيح مسلم أنه قال : رأى محمد ربه بفؤاده مرتين . وكذلك ذكر أحمد عن أبى ذر وغيره أنه أثبت رؤيته بفؤاده ، وهذا المنصوص عن ابن عباس وأبى ذر وغيرهما هو المنصوص عن أحمد وغيره من أئمة السُنَّة ، ولم يثبت عن أحد منهم إثبات الرؤية بالعين فى الدنيا ، كما لم يثبت عن أحد منهم إنكار الرؤية فى الآخرة ، ولكن كلاَ القولين تقول به طوائف من الجهمية ، فالنفى يقول به متكلمة الجهمية ، والإثبات يقول به بعض متصوفة الجهمية كالاتحادية وطائفة من غيرهم ، وهؤلاء الاتحادية يجمعون بين النفى والإثبات ، كما يقول ابن سبعين : « عين ما ترى ذات لا ترى ، وذات لا ترى عين ما ترى » . ونحو ذلك ، لأنَّ مذهبهم مستلزم الجمع بين النقيضين ، فهم يقولون فى عموم الكائنات ما قالته النصارى فى المسيح ، ولهذا تنوَّعوا فى ذلك تنوع النصارى فى المسيح .

• تفنيد كفرهم بتفضيل الأولياء على الأنبياء كالفلاسفة :

ومن الأنواع التى فى دعواهم أنَّ خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء من بعض الوجوه ، فإنَّ هذا لم يقله أبو عبد اللّه الحكيم الترمذى ولا غيره من المشايخ المعروفين ، بل الرجل أجَلُ قَدَراً وأعظم إيماناً من أن يفترى هذا الكفر الصريح ، ولكن أخطأ شبراً ، ففرَّعوا على خطئه ماصار كفراً .

وأعظم من ذلك زعمه أنَّ الأولياء والرسل من حيث ولايتهم تابعون لخاتم الأولياء وأخذوا من مشكاته ، فهذا باطل بالعقل والدين ، فإن المتقدم لا يأخذ من المتأخر ، والرسل لا يأخذون من غيرهم . وأعظم من ذلك أنه جعلهم تابعين له فى العلم باللّه الذى هو أشرف علومهم ، وأظهر من ذلك أنه جعل العلم باللّه هو مذهب أهل وحدة الوجود القائلين بأنَّ وجود المخلوق هو عين وجود الخالق .

فليتدبر المؤمن هذا الكفر القبيح درجة بعد درجة . واستشهاده على تفضيل غير النبى عليه بقصة عمر وتأبير النخل ، فهل يقول مسلم أنَّ عمر كان أفضل من النبى ﷺ برأيه فى الأسرى ؟ وأنَّ الفلاحين الذين يحسنون صناعة التأبير أفضل من الأنبياء فى ذلك ؟ ثم ما قنع بذلك حتى قال : فما يلزم الكامل أن يكون له التقديم فى كل علم وكل مرتبة ، وإنما نظر الرجال إلى التقدم فى مرتبة العلم باللّه ، هنالك مطلبهم ..

فقد زعم أنه أعلم باللّه من خاتم الأنبياء ، وأنَّ تقدمه عليه بالعلم باللّه ، وتقدم خاتم الأنبياء عليه بالتشريع فقط . وهذا من أعظم الكفر الذى يقع فيه غالية المتفلسفة وغالية المتصوفة وغالية المتكلمة الذين يزعمون أنهم فى الأمور العلمية أكمل من الرسل ، كالعلم باللّه ونحو ذلك ، وأنَّ الرسل إنما تقدَّموا عليهم بالتشريع العام الذى جُعِلَ لصلاح الناس فى دنياهم . وقد يقولون : إنَّ الشرائع قوانين عدلية وُضِعَت لمصلحة الدنيا ، فأما المعارف والحقائق والدرجات العالية فى الدنيا والآخرة فيُفضِّلون فيها أنفسهم وطرقهم على الأنبياء وطرق الأنبياء .

وقد عُلِمَ بالاضطرار من دين المسلمين أنَّ هذا من أعظم الكفر والضلال ، وكان من سبب جحد حقائق ما أخبرت به الرسل من أمر الإيمان باللّه واليوم الآخر وزعمهم أنَّ ما يقوله هؤلاء فى هذا الباب هو الحق ، وصاروا فى أخبار الرسل تارة يُكذِّبونها ، وتارة يُحرِّفونها ، وتارة يُفوِّضونها ، وتارة يزعمون أنَّ الرسل كذبوا لمصلحة العموم .

ثم عامة الذين يقولون هذه المقالات يُفضّلون الأنبياء والرسل على أنفسهم إلا الغالية منهم كما تقدم ، فهؤلاء من شر الناس قولاً واعتقاداً .

وقد كان عندهم شيخ من أجهل الناس كان يعظمه طائفة من الأعاجم ويقال إنه خاتم الأولياء ، يزعم أنه يفسّر العلم بوجهين ، وأنّ النبى ﷺ إنما فسّره بوجه واحد ، وأنه هو أكمل من النبى ﷺ ، وهذا تلقاه من صاحب الفصوص وأمثال هذا فى هذه الأوقات كثير ، وسبب ضلال المتفلسفة وأهل التصوف والكلام الموافقة لضلالهم ، وليس هذا موضع الإطناب فى بيان ضلال هذا ، وإنما الغرض التنبيه على أنّ صاحب الفصوص وأمثاله قالوا قول هؤلاء .

فأما كفر مَن يفضّل نفسه على النبى ﷺ - كما ذكر صاحب الفصوص - فظاهر ، ولكن من هؤلاء مَن لا يرى ذلك ولكن يرى أنّ له طريقاً إلى الله غير إتباع الرسول ، ويسوّغ لنفسه إتباع تلك الطريق وإن خالف شرع الرسول ، ويحتجون بقصة موسى والخضر .

• بطلان الاحتجاج بقصة موسى والخضر على مخالفة الشريعة :

ولاحُجّة فيها لوجهين ...

أحدهما : أنّ موسى لم يكن مبعوثاً إلى الخضر ، ولا كان يجب على الخضر إتباع موسى ، فإنّ موسى كان مبعوثاً إلى بنى إسرائيل ولهذا جاء فى الحديث الصحيح : « إنّ موسى لما سلّم على الخضر قال : وأنّى بأرضك السلام ؟ قال : أنا موسى ، قال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم ، قال : إنك على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه . وأنا على علم من الله علمنيه لا تعلمه » ، ولهذا قال نبينا ﷺ : « فُضّلنا على الناس بخمس : جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجُعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأى رجل أدركته الصلاة فعنده مسجده وطهوره ، وأُحلّت لى الغنائم ولم تُحَل لأحد قبلى ، وأعطيتُ الشفاعة »[1] ،

---

(١) لم يذكر الخامسة ، وفى بعض الأحاديث هى : « ونصرتُ بالرعب مسيرة شهر » .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ [1] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ ... الآية [2] .

فمحمد ﷺ رسول الله إلى جميع الثقلين : إنسهم وجنهم ، عربهم وعجمهم ، ملوكهم وزهادهم ، الأولياء منهم وغير الأولياء . فليس لأحد الخروج عن مبايعته باطناً وظاهراً ، ولا عن متابعة ماجاء به من الكتاب والسُنَّة فى دقيق ولا جليل ، لا فى العلوم ولا الأعمال ، وليس لأحد أن يقول له كما قال الخضر لموسى ، وأما موسى فلم يكن مبعوثاً إلى الخضر .

● قصة الخضر ليس فيها مخالفة للشريعة :

الثانى : أنَّ قصة الخضر ليس فيها مخالفة للشريعة ، بل الأمور التى فعلها تُباح فى الشريعة ، إذا علم العبد أسبابها كما علمها الخضر ، ولهذا لما بيَّن أسبابها لموسى وافقه على ذلك ، ولو كان مخالفاً لشريعته لم يوافقه بحال .

وقد بسطنا هذا فى غير هذا الموضع . فإنَّ خرق السفينة مضمونه أنَّ المال المعصوم يجوز للإنسان أن يحفظه لصاحبه بإتلاف بعضه فإنَّ ذلك خير من ذهابه بالكلية ، كما جاز للراعى على عهد النبى ﷺ أن يذبح الشاة التى خاف عليها الموت . وقصة الغلام مضمونها جواز قتل الصبى الصائل ، ولهذا قال ابن عباس : وأما الغلمان ، فإن كنتَ تعلم منهم ما علمه الخضر من ذلك الغلام فاقتلهم وإلا فلا تقتلهم . وأما إقامة الجدار ففيها فعل المعروف بلا أجرة مع الحاجة إذا كان لذُرية قوم صالحين .

* * *

---

(١) سبأ : ٢٨ (٢) الأعراف : ١٥٨

● بطلان زعمه أنَّ الحقيقة من حيث يأخذ مَلَك الوحى :

الوجه الثامن : أنه قال : « ولما مثَّل النبى ﷺ النبوَّة بالحائط ... » إلى آخر كلامه ، وهو متضمن أنَّ العلم نوعان :

أحدهما : علم الشريعة وهو يأخذه عن اللّه كما يأخذ النبى ، فإنه قال : « والسبب الموجب لكونه رآها لَبِنتين أنه تابع لشرع خاتم الرسل فى الظاهر وهو موضع اللَّبنة الفضية وهو ظاهره وما يتبعه فيه من الأحكام ، كما هو آخذ عن اللّه فى السر ما هو بالصورة الظاهرة متبع فيه لأنه يرى الأمر على ما هو عليه فلا بد أن يراه هكذا » .

وهذا الذى زعمه من أنَّ الولى يأخذ عن اللّه فى السر ما يتبع فيه الرسل كأئمة العلماء مع أتباعهم ، فيه من الالحاد ما لا يخفى على مَن يؤمن باللّه ورسله ، فإنَّ هذا يدَّعى أنه أُوتىَ مثل ما أُوتىَ رسل اللّه ، ويقول إنه أُوحِىَ إلىَّ ولم يوح إليه شئ ، ويجعل الرسل بمنزلة معلمى الطب والحساب والنحو ... وغير ذلك إذا عرف المتعلم الدليل الذى قال به معلمه فينبغى موافقته لمشاركته له فى العلم لا لأنه رسول وواسطة من اللّه إليه فى تبليغ الأمر والنهى . وهذا الكفر يشبه كفر مسيلمة الكذَّاب ونحوه ممن يدَّعى أنه مشارك للرسول فى الرسالة ، وكان يقول مؤذنه : أشهد أنَّ محمداً ومسيلمة رسولا اللّه .

والنوع الثانى : علم الحقيقة ، وهو فيه فوق الرسول ، كما قال : هو موضع اللَّبنة الذهبية فى الباطن ، فإنه أخذ من المعدن الذى يأخذ منه المَلك الذى يُوحِى به إلى الرسول ، فقد ادَّعى أنَّ هذا العلم الذى هو موضع اللَّبنة الذهبية - وهو علم الباطن والحقيقة - هو فيه فوق الرسول لأنه يأخذه من حيث يأخذ المَلك العلم الذى يُوحِى به إلى الرسول ، والرسول يأخذه من المَلك ، وهو أخذه من فوق المَلك ، من حيث يأخذه المَلك ، وهذا فوق دعوى مسيلمة الكذَّاب ، فإنَّ مسيلمة لم يدَّع أنه أعلا من الرسول فى علم من العلوم الإلهية ، وهذا ادَّعى أنه فوقه فى العلم باللّه .

ثم قال : « فإن فهمتَ ما أشرتُ به فقد حصل لك العلم النافع » . ومعلوم أنَّ هذا الكفر فوق كفر اليهود والنصارى ، فإنَّ اليهود والنصارى لا ترضى أن تجعل أحداً من المؤمنين فوق موسى وعيسى ، وهذا يزعم هو وأمثاله ممن يدَّعى أنه خاتم الأولياء أنه فوق جميع الرسل ، وأعلم باللّه من جميع الرسل ، وعقلاء الفلاسفة لايرضون بهذا وإنما يقول مثل هذا غلاتهم ، وأهل الحق منهم الذين هم من أبعد الناس عن العقل والدين .

* * *

• بطلان زعمه أخذ كل من الأنبياء والأولياء عن خاتمهم :

التاسع : قوله : « فكل نبى من لدُن آدم ... » إلى آخر الفصل . تضمن أنَّ جميع الأنبياء والرسل لا يأخذون إلا من مشكاة خاتم النبيين ، ليوطن نفسه بذلك أنَّ جميع الأنبياء لا يأخذون إلا من مشكاة خاتم الأولياء ، وكلاهما ضلال ، فإن الرسل ليس منهم مَن يأخذ من آخر إلا مَن كان مأموراً باتباع شريعته كأنبياء بنى إسرائيل والرسل الذين فيهم الذين أُمروا باتباع التوراة كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ ... الآية [1] .

وأما إبراهيم ... فلم يأخذ عن موسى وعيسى ، ونوح لم يأخذ عن إبراهيم ، ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى لم يأخذوا عن محمد وإن بشَّروا به وآمنوا به كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ ... الآية [2] ، قال ابن عباس : « ما بعث اللّه نبياً إلا أخذ عليه العهد فى أمر محمد وأخذ العهد على قومه ليؤمنن به ، ولئن بُعِثَ وهم أحياء لينصرنه » .

* * *

---

(١) المائدة : ٤٤ (٢) آل عمران : ٨١

• الأحاديث الموضوعة فى سبق خلقه - صلى اللّه عليه وسلم - لولادته فى الدنيا :

العاشر : قوله : « فإنَّ تحقيقه موجود ، وهو قوله : « كنتُ نبياً وآدم بين الماء والطين » بخلاف غيره من الأنبياء ، وكذلك خاتم الأولياء كان ولياً وآدم بين الماء والطين » - كذب واضح مخالف لإجماع أئمة الدين ، وإن كان هذا يقوله طائفة من أهل الضلال والإلحاد ، فإنَّ اللّه عَلِمَ الأشياء وقدَّرها قبل أن يكوِّنها ، ولا تكون موجودة بحقائقها إلا حين توجد ، ولا فرق فى ذلك بين الأنبياء وغيرهم ، ولم تكن حقيقته ﷺ موجودة قبل أن يُخلق إلا كما كانت حقيقة غيره ، بمعنى أنَّ اللّه علمها وقدَّرها ، لكن كان ظهور خبره واسمه مشهوراً أعظم من غيره ، فإنه كان مكتوباً فى التوارة والإنجيل وقبل ذلك ، كما روى الإمام أحمد فى مسنده عن العرباض بن سارية ، عن النبى ﷺ قال : « إنى لعبد اللّه مكتوب خاتم النبيين وإنَّ آدم لمنجدل فى طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك : دعوة أبى إبراهيم ، وبُشرى عيسى ، ورؤيا أُمى ، رأت حين ولدتنى كأنها خرج منها نور أضاءت له قصور الشام » ، وحديث ميسرة الفجر : قلتُ يا رسول اللّه ، متى كنتَ نبياً ؟ - وفى لفظ : متى كُتِبتَ نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » وهذا لفظ الحديث .

وأما قوله : « كنتُ نبياً وآدم بين الماء والطين » فلا أصل له ، لم يروه أحد من أهل العلم بالحديث بهذا اللفظ وهو باطل ، فإنه لم يكن بين الماء والطين ، إذ الطين ماء وتراب ، ولكن لما خلق اللّه جسد آدم قبل نفخ الروح فيه كتب نبوَّة محمد ﷺ وقدَّرها ، كما ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود قال : حدَّثنا رسول اللّه ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إنَّ خلق أحدكم يُجعل فى بطن أُمه أربعين يوماً ، ثم يكون عَلَقة مثل ذلك ، ثم يكون مُضغة مثل ذلك ، ثم يُبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات ، فيقال : اكتب رزقه ، وعمله ، وأجله ، وشقى أو سعيد ، ثم يُنفخ فيه الروح » .

ورُوِيَ أنه كُتِبَ اسمه على ساق العرش ومصاريع الجنة [1] فأين الكتاب والتقدير من وجود الحقيقة ؟ وما يُروى فى هذا الباب من الأحاديث هو من هذا الجنس مثل كونه كان نوراً يسبح حول العرش ، أو كوكباً يطلع فى السماء ... ونحو ذلك - كما ذكره ابن حمويه صاحب ابن عربى ، وذكر بعضه عمر الملا فى « وسيلة المتعبدين » وابن سبعين وأمثالهم ممن يروى الموضوعات المكذوبات باتفاق أهل المعرفة بالحديث . فإنَّ هذا المعنى رووا فيه أحاديث كلها كذب حتى إنه اجتمع بى قديماً شيخ معظم من أصحاب ابن حمويه يسميه أصحابه « سلطان الأقطاب » وتفاوضنا فى كتاب الفصوص وكان معظِّماً له ولصاحبه حتى أبديتُ له بعض ما فيه فهاله ذلك وأخذ يذكر مثل هذه الأحاديث ، فبيَّنتُ له أنَّ هذا كله كذب .

* * *

● بعض مَن كفَّر ابن عربى وجعله ملحداً معطِّلاً :

الحادى عشر : قوله : « وخاتم الولاية كان ولياً وآدم بين الماء والطين » ... إلى قوله : « فخاتم الرسل من حيث ولايته نسبته مع الختم للولاية كنسبة الأولياء والرسل معه » ... إلى آخر الكلام - ذكر فيه ما تقدم من كون رسول الله ﷺ مع هذا الختم المدَّعى - كسائر الأنبياء والرسل معه - يأخذ من مشكاته العلم بالله الذى هو أعلا العلم وهو « وحدة الوجود » ، أنه مقدم الجماعة وسيد ولد آدم فى فتح باب الشفاعة . فعيَّن حالاً خاصاً ما عمم - إلى قوله : « ففاز محمد بالسيادة فى هذا المقام الخاص » . فكذب على رسول الله ﷺ فى قوله : أنه قال : « سيد ولد آدم فى الشفاعة فقط لا فى بقية المراتب » بخلاف الختم المفترَى فإنه سيد فى العلم بالله وغير ذلك من المقامات .

---

(١) أشار بقوله : « روى » إلى أنَّ هذا ضعيف غير صحيح كالذى قبله ، وأما : « كنتُ نبياً وآدم بين الماء والطين » فإنه باطل رواية ومعنى .

ولقد كنت أقول : لو كان المخاطب لنا ممن يُفضِّل إبراهيم أو موسى أو عيسى على محمد ﷺ لكانت مصيبة عظيمة لا يحملها المسلمون ، فكيف بمن يفضل رجلاً من أمة محمد على محمد وعلى جميع الأنبياء والرسل فى أفضل العلوم ويدَّعى أنهم يأخذون ذلك من مشكاته ؟ وهذا العلم هو غاية الإلحاد والزندقة . وهذا المفضَّل من أضل بنى آدم وأبعدهم عن الصراط المستقيم ، وإن كان له كلام كثير ومصنفات متعددة ، وله معرفة بأشياء كثيرة ، وله استحواذ على قلوب طوائف من أصناف المتفلسفة والمتصوفة والمتكلمة والمتفقهة والعامة ، فإنَّ هذا الكلام من أعظم الكلام ضلالاً عند أهل الكلام والإيمان ، والله أعلم .

* * *

● جَماع أمر ابن عربى وذويه هدم أصل الإيمان :

وقد تبيَّن أنَّ فى هذا الكلام من الكفر والتنقيص بالرسل والاستخفاف بهم والغض منهم والكفر بهم وبما جاءوا به ما لا يخفى على مؤمن ، وقد حدَّثنى أحد أعيان الفضلاء أنه سمع الشيخ إبراهيم الجعبرى رحمة الله عليه يقول : رأيتُ ابن عربى وهو شيخ نجس يُكذِّب بكل كتاب أنزله الله وبكل نبى أرسله الله . ولقد صدق فيما قال ، ولكن هذا بعض الأنواع التى ذكرها من الكفر ، وكذلك قول أبى محمد بن عبد السلام : هو شيخ سوء مقبوح كذَّاب يقول بِقدَم العالَم ولا يُحرِّم فرجاً – هو حق عنه لكنه بعض أنواع ما ذكره من الكفر ، فإنَّ قوله لم يكن قد تبيَّن له حاله وتحقق ، وإلا فليس عنده رب وعالِم كما تقوله الفلاسفة الإلهيون الذين يقولون بواجب الوجود ، وبالعالم الممكن الوجود ، بل عنده وجود العالَم هو وجود الله ، وهذا يطابق قول الدهرية الطبائعية الذين ينكرون وجود الصانع مطلقاً ولا يقرون بوجود واجب غير العالم كما ذكر الله عن فرعون وذويه ، وقوله مطابق لقول فرعون ، لكن فرعون لم يكن مقراً بالله وهؤلاء يقرون بالله ، ولكن يفسرونه بالوجود الذى أقرَّ به فرعون ، فهم أجهل من فرعون وأضل ، وفرعون أكفر منهم ، فى كفره من العناد والاستكبار ما ليس فى كفرهم ،

كما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ (١) ، وقال له موسى : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاَءِ إِلا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾ (٢) ، وجَماع أمر صاحب الفصوص وذويه هدم أُصول الإيمان الثلاثة ، فإنَّ أُصول الإيمان : الإيمان باللّه ، والإيمان برسله ، والإيمان باليوم الآخر .

فأما الإيمان باللّه : فزعموا أنَّ وجوده وجود العالَم ليس للعالَم صانع غير العالَم ، وأما الرسول فزعموا انهم أعلم باللّه منه ومن جميع الرسل ، ومنهم مَن يأخذ العلم باللّه - الذى هو التعطيل ووحدة الوجود - : من مشكاته ، وأنهم يساوونه فى أخذ العلم بالشريعة عن اللّه ، وأما الإيمان باليوم الآخر ... فقد قال :

فلم يبق إلا صادق الوعد وحده ... وبالوعيد الحق عين تعاين

وإن دخلوا دار الشقاء فإنهم ... على لذّة فيها نعيم يباين

● زعم الاتحادية أنَّ العابد والمعبود واحد :

وهذا يُذكر عن بعض أهل الضلال قبله أنه قال : إنَّ النار تصير لأهلها طبيعة نارية يتمتعون بها ، وحينئذ فلا خوف ولا محذور ولا عذاب لأنه أمر مستعذَب ، ثم إنه فى الأمر والنهى عنده الآمر والناهى والمأمور والمنهى واحد ، ولهذا كان أول ما قاله فى « الفتوحات المكية » التى هى أكبر كتبه :

الرب حق والعبد حق ... ياليتَ شعرى مَن المكلَّف

إن قلتَ عبدٌ فذاك رب ... أو قلتَ ربٌ أنَّى يكلَّف ؟

وفى موضع آخر : « فذاك ميت » ، رأيته بخطه .

وهذا مبنى على أصله ، فإنَّ عنده ما ثَمَّ عبد ولا وجود إلا وجود الرب فمَن المكلَّف ؟ وعلى أصله هو المكلِّف كما يقولون : أرسل من نفسه إلى نفسه رسولاً ،

---

(١) النمل : ١٤ (٢) الإسراء : ١٠٢

وكما قال ابن الفارض [1] فى قصيدته التى نظمها على مذهبهم وسماها نظم السلوك :

---

(١) ابن الفارض : هو عمر بن الفارض ، شاعر صوفى من القائلين بوحدة الوجود ، ولد سنة ٥٧٦ هـ ، وتوفى سنة ٦٣٢ هـ ، ودفن بمصر ، اشتهر بقصيدته الثائية التى نظمها شرحاً لفصوص الحكم لابن عربى .

يقول عنه الإمام برهان الدين البقاعى (ت ٨٨٥ هـ) : « إنه لم يوجد لأحد من أهل عصره المخبرين بحاله ثناء عليه بعدالة ولا ولاية ، ولا ظهر عنه علم من العلوم الدينية ، ولا مدح النبى صلى الله عليه وسلم بقصيدة واحدة على كثرة شعره ، فدل ذلك على سوء طويته ، ونقل القدح فيه نقلاً قطعياً عن محبيه ومبغضيه ، فقد قال شرّاح ثائيته التابعون لطريقته والمنتقدون عليه من أهل السُّنّة : « إنّ أهل زمانه كلهم من أهل الشريعة وأرباب الطريقة رموه بالفسق والإباحة والزندقة على الإجمال » .

وقد رماه بالزندقة بشهادة الكتب الموثوق بها نحو من أربعين عالماً ، هم دعائم الدين من عصره .

فمن أهل عصره : سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام الشافعى ، والحافظ الفقيه الأصولى تقى الدين بن الصلاح الشافعى ، والإمام الفقيه المحدّث الصوفى قطب الدين القسطلانى الشافعى ، والإمام نجم الدين أحمد بن حمدان الحنبلى (ت ٦٩٥ هـ) ، وشرح التائية وبيّن عواره فيها بيتاً بيتاً ، وأبو على عمر بن خليل الكونى المالكى ، والشيخ جمال الدين بن الحاجب المالكى .

كما رماه بالزندقة ممن يليهم : قاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد الصوفى الشافعى ، وقاضى القضاة تقى الدين عبد الرحمن ابن بنت الأعز الشافعى ، وقاضى القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعى ، والشرف عيسى الزواوى المالكى ، والسعد الحارثى الحنبلى ، والإمام أبو حيان الشافعى ، وأبو أمامة بن النقاش الشافعى ، والحافظ شمس الدين الموصلى الشافعى ، وشيخ الإسلام تقى الدين السبكى الشافعى ، وشيخ الفقهاء الزين الكتنانى الشافعى ، والشيخ تقى الدين ابن تيمية الحنبلى .

وممن يليهم : الكمال جعفر الأدفوى الشافعى (ت ٧٤٨ هـ) - ونقل ذم التائية عن العلماء - والبرهان إبراهيم السفاقسى المالكى ، والشهاب أحمد بن أبى حجلة الحنفى ، والحافظ شمس الدين الذهبى الشافعى ، والحافظ عماد الدين بن كثير الشافعى .

وممن يليهم : العلاّمة شمس الدين محمد العبزرى الشافعى (ت ٨٠٨ هـ) ، وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينى الشافعى ، وعلاّمة زمانه علاء الدين محمد البخارى الحنفى الصوفى - =

إلىّ رسولاً كنت منى مرسلاً   وذاتى بآياتى علىّ استدلت

ومضمونها هو القول بوحدة الوجود ومذهب ابن عربى وابن سبعين وأمثالهم كما قال :

لها صـــلاتـــى بالمقـــام أُقيمهـــا   وأشهـــد فيها أنهـــا لـــــى صلّت

كـــلانا مُصَـــلٍّ عابد ساجد إلـــى   حقيقة الجمع فـــى كـــل سجدة [1]

وما كان لى صلّى سواى فلم تكـن   صـــلاتـــى لغيرى فى أدا كل ركعة

= وكفَّر بعض مَن قال بحضرته - وهو شمس الدين البساطى - : إنَّ ذلك يزول ، وما أنكر عليه أحد ممن كان حاضره من العلماء تكفيره له ، ولا غيرهم من أهل زمانه من مذهب من المذاهب ، وما وسع المكفِّر إلا البراءة من الاتحادية ومذهبهم .

ورماه بالزندقة ممن يليهم : قاضى القضاة ولى الدين العراقى ، وقاضى القضاة حافظ عصره شهاب الدين أحمد بن حجر الشافعى ، وقاضى القضاة بدر الدين محمود العينى الحنفى ، وقاضى القضاة شمس الدين البساطى المالكى ، وعلأمة اليمن بدر الدين حسين بن الأهدل الشريف الشافعى الصوفى ، كما شهد بهذا النقل عنهم نحو عشرين كتاباً من مصنفاتهم ، ومصنفات غيرهم من العلماء ، وهى شرح التائية لابن حمدان ، وديباجة ديوان ابن الفارض ، ولحن العوام لابن خليل ، وتفسير أبى حيان البحر والنهر ، والفرقان لابن تيمية ، وقصيدة السفاقسى التى يقول فيها :

وكالششترى القونوى ابن فارض   فلا برد اللّه ثراهم ، ولا أسقى

والقونوى الذى ذكره ، صدر الدين صاحب ابن عربى ، وكتاب ابن أبى حجلة ، والميزان ولسانه لابن حجر ، والتاريخ لابن كثير بخطه ، وناصحة الموحدين للعلاء البخارى ، والفتاوى المكية للعراقى ، وتاريخ العينى ، وشرح التائية للبساطى ، وكشف الغطاء لابن الأهدل ، فهذه ستة عشر كتاباً وقصيدة شهدت بكفره من بضع وعشرين عالماً ، هم أعيان كل عصر .

وممن كفَّره : قاضى القضاة سعد الدين الديرى الحنفى ، وقاضى القضاة محقق زمانه شمس الدين القاياتى ، ونادرة وقته عز الدين بن عبد السلام القدسى الشافعى ، والعلأمة علاء الدين القلقشدى الشافعى ، والشيخ يحيى العجيسى المالكى ، والعلأمة شمس الدين البلاطنيسى الشافعى شيخ الشاميين فى وقته ، وشيخ الإسلام عبد الأول السمرقندى الحنفى ابن صاحب الهداية ، والعلأمة الصوفى كمال الدين ابن إمام الكاملية الشافعى ، والعلأمة شهاب الدين بن قر الشافعى ، والعلأمة أبوالقاسم النويرى المالكى ، كما شهد بذلك الثقات من أصحابهم .

وانظر « تنبيه الغبى إلى تكفير ابن عربى » ، للعلأمة برهان الدين البقاعى - نشر دار التقوى ص ٢١٤ - ٢١٧ بتصرف ، و جـ ١ هامش ص ١١٤ من هذا الكتاب . (البلتاجى)

(١) البيت فى ديوانه الذى بين الأيدى هكذا :

كِلانا مُصَلٍّ واحد ناظر إلى   حقيقته بالجمع فى كل سجدة

إلى قوله :

وما زلتُ إياها وإياى لم تزل ولا فرق بل ذاتى لذاتى أحبتِ

... ومثل هذا كثير والله أعلم .

● كبار العلماء الذين طعنوا فى ابن عربى :

وحدَّثنى صاحبنا الفقيه الصوفى أبو الحسن على بن قرياص أنه دخل على الشيخ قطب الدين بن القسطلانى فوجده يصنِّف كتاباً فقال : ما هذا ؟ فقال : هذا فى الرد على ابن سبعين [1] وابن الفارض وأبى الحسن الجربى والعفيف التلمسانى [2] .

وحدَّثنى عن جمال الدين بن واصل وشمس الدين الأصبهانى أنهما كانا ينكران كلام ابن عربى ويبطلانه ويردان عليه ، وأنَّ الأصبهانى رأى معه كتاباً من كتبه فقال : إن اقتنيتَ شيئاً من كتبه فلا تجىء إلىَّ ، أو ما هذا معناه .

وأنَّ ابن واصل لما ذكر كلامه فى التفاحة التى انقلبت عن جوار معلم معها فقال : والله الذى لا إله إلاَّ هو يكذب . ولقد بَرَّ فى يمينه .

وحدَّثنى صاحبنا الفاضل أبو بكر بن سالار ، عن الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد شيخ وقته ، عن الإمام أبى محمد بن عبد السلام أنهم سألوه عن ابن عربى ، لما دخل مصر ، فقال : شيخ سوء مقبوح يقول بقِدَم العالَم ولا يُحرِّم فرْجاً .

وكان تقى الدين يقول : هوصاحب خيال واسع . حدَّثنى بذلك غير واحد من الفقهاء ممن سمع كلام ابن دقيق العيد .

وحدَّثنى ابن بحير عن رشيد الدين سعيد وغيره أنه قال : كان يستحل الكذب ، هذا أحسن أحواله .

---

(١) للتعريف بابن سبعين انظر جـ ١ هامش ص ١١٤ ، وهامش ص ٣١ من هذا الجزء .

(٢) للتعريف بالتلمسانى انظر جـ ١ هامش ص ١١٢ ، وهامش ص ٢٨ من هذا الجزء .

وحدَّثنى الشيخ العالِم العارف كمال الدين المراغى شيخ زمانه أنه لما قدم وبلغه كلام هؤلاء فى التوحيد قال : قرأتُ على العفيف التلمسانى من كلامهم شيئاً فرأيته مخالفاً للكتاب والسُنَّة ، فلما ذكرتُ ذلك له قال : القرآن ليس فيه توحيد ، بل القرآن كله شِرك ، ومَن اتبع القرآن لم يصل إلى التوحيد ، قال : فقلت له : ما الفرق عندكم بين الزوجة والأجنبية والأُخت والكل واحد ؟ قال : لا فرق بين ذلك ، وإنما هؤلاء المحجوبون اعتقدوه حراماً فقلنا : هو حرام عليهم عندهم ، وأما عندنا فما ثَمَّ حرام .

وحدَّثنى كمال الدين بن المراغى أنه لما تحدَّث مع التلمسانى فى هذا المذهب قال : وكنتُ أقرأ عليه فى ذلك فإنهم كانوا قد عظَّموه عندنا ونحن مشتاقون إلى معرفة « فصوص الحكم » ، فلما صار يشرحه لى أقول هذا خلاف القرآن والأحاديث ، فقال : ارم هذا كله خلف الباب واحضر بقلب صاف حتى تتلقى هذا التوحيد - أو كما قال - ثم خاف أن أشيع ذلك عنه فجاء إلىَّ باكياً وقال : استر عنى ما سمعته منى .

وحدَّثنى أيضاً كمال الدين أنه اجتمع بالشيخ أبى العباس الشاذلى تلميذ الشيخ أبى الحسن فقال عن التلمسانى : هؤلاء كفار .. هؤلاء يعتقدون أنَّ الصنعة هى الصانع ، قال : وكنتُ قد عزمتُ على أن أدخل الخلوة على يده فقلت : أنا لا آخذ عنه هذا وإنما أتعلم منه أدب الخلوة ، فقال لى : مثلك مثل مَن يريد أن يقترب إلى السلطان على يد صاحب الأتون والزبَّال ، فإذا كان الزبَّال هو الذى يُقرِّبه إلى السلطان ، كيف يكون حاله عند السلطان ؟

وحدَّثنا أيضاً قال : قال لى قاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد : إنما استولت التتار على بلاد المشرق لظهور الفلسفة فيهم وضعف الشريعة ، فقلت له : ففى بلادكم مذهب هؤلاء الذين يقولون بالاتحاد وهو شر من مذهب الفلاسفة . فقال : قول هؤلاء لا يقوله عاقل ، بل كل عاقل يعلم فساد قول

هؤلاء - يعنى أنَّ فساده ظاهر فلا يذكر هذا فيما يشتبه على العقلاء بخلاف مقالة الفلاسفة فإنَّ فيها شيئاً من المعقول وإن كانت فاسدة .

وحدَّثنى تاج الدين الأنبارى الفقيه المصرى الفاضل أنه سمع الشيخ إبراهيم الجعبرى يقول : رأيتُ ابن عربى شيخاً مخضوب اللحية وهو شيخ نجس يكفر بكل كتاب أنزله الله ، وكل نبى أرسله الله .

وحدَّثنى الشيخ رشيد الدين بن المعلم أنه قال : كنتُ وأنا شاب بدمشق أسمع الناس يقولون عن ابن عربى والخسرو شاهى أنَّ كلاهما زنديق - أو كلاماً هذا معناه .

وحدَّثنى عن الشيخ إبراهيم الجعبرى أنه حضر ابن الفارض عند الموت وهو ينشد :

إن كان منزلتى فى الحب عندكمُ ما قد لقيتُ فقد ضيَّعتُ أيامى
أمنية ظفـرت نفسـى بها زمنـاً واليوم أحسبها أضغاثُ أحلامِ

وحدَّثنى الفقيه الفاضل تاج الدين الزنبارى أنه سمع الشيخ إبراهيم الجعبرى يقول : رأيتُ فى منامى ابن عربى وابن الفارض وهما شيخان أعميان يمشيان ويتعثران ويقولان : كيف الطريق ؟ أين الطريق ؟

وحدَّثنى شهاب الدين المزى عن شرف الدين بن الشيخ نجم الدين ابن الحكيم عن أبيه أنه قال : قدمتُ دمشق فصادفتُ موت ابن عربى فرأيت جنازته كأنما ذُرَّ عليها الرماد فرأيتها لا تشبه جنائز الأولياء - أو قال : فعلمت أنَّ هذا .

وعن أبيه عن الشيخ إسماعيل الكورانى أنه كان يقول : ابن عربى شيطان .

وعنه أنه كان يقول عن الحريرى : إنه شيطان .

وحدَّثنى شهاب الدين عن القاضى شرف الدين الباربلى أنَّ اباه كان ينهاه عن كلام ابن عربى وابن الفارض وابن سبعين .

* * *

فصل

فى بيان كفر الاتحادية وفساد قولهم بالأدلة النظرية

• بعض ما يظهر به كفرهم ، وفساد قولهم . وذلك من وجوه :

أحدها : أنَّ حقيقة قولهم : إنّ اللّه لم يخلق شيئاً ولا ابتدعه ولا برأه ولا صوّره ، لأنه إذا لم يكن وجود إلا وجوده فمن الممتنع أن يكون خالقًا لوجود نفسه ، أو بارئاً لذاته ، فإنَّ العلم بذلك من أبين العلوم وأبدهها للعقول أنَّ الشئ لا يخلق نفسه ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ ﴾ ؟ (١) فإنهم يعلمون أنهم لم يكونوا مخلوقين من غير خالق ، ويعلمون أنَّ الشئ لا يخلق نفسه فتعيَّن أنَّ لهم خالقاً ، وعند هؤلاء الكفار الملاحدة الفرعونية أنه ما ثَمَّ شئ يكون الرب قد خلقه وبرأه أو أبدعه إلا نفسه المقدسة ، ونفسه المقدسة لا تكون مخلوقة مربوبة مصنوعة مبروءة لامتناع ذلك فى بدائه العقول ، وذلك من أظهر الكفر عند جميع أهل الملل ، وأما على رأى صاحب الفصوص فما ثَمَّ إلا وجوده والذوات الثابتة فى العدم الغنية عنه ، ووجوده لا يكون مخلوقاً ، والذوات غنية عنه ، فلم يخلق اللّه شيئاً .

الثانى : أنَّ عندهم أنَّ اللّه ليس رب العالمين ، ولا مالك المُلك ، أو ليس إلا وجوده ، وهو لا يكون رب نفسه ، ولا يكون الملك المملوك هو الملك المالك ، وقد صرّحوا بهذا الكفر مع تناقضه وقالوا : إنه هو مَلك المُلك ، بناءً على أنَّ وجوده مفتقر إلى ذوات الأشياء ، وذوات الأشياء مفتقرة إلى وجوده ، فالأشياء مالكة لوجوده ، فهو مَلك المُلك .

الثالث : أنَّ عندهم أنَّ اللّه لم يرزق أحداً شيئاً ، ولا أعطى أحداً شيئاً ، ولا رحم أحداً ، ولا أحسن إلى أحد ، ولا هدى أحداً ، ولا أنعم على أحد نعمة ،

---

(١) الطور : ٣٥

ولا علّم أحداً علماً ، ولا علّم أحداً البيان ، وعندهم فى الجملة لم يصل منه إلى أحد لا خير ولا شر ، ولا نفع ولا ضر ، ولا عطاء ولا منع ، ولا هدى ولا إضلال أصلاً . وأنّ هذه الأشياء جميعها عين نفسه ومحض وجوده . فليس هناك غير يصل إليه ، ولا أحد سواه ينتفع بها ، ولا عبد يكون مرزوقاً أو منصوراً أو مهدياً .

ثم على رأى صاحب « الفصوص » : أنّ هذه الذوات ثابتة فى العدم ، والذوات هى أحسنت وأساءت ، ونفعت وضرّت ، وهذا عنده سر القَدَر . وعلى رأى الباقين : ما ثَمّ ذات ثابتة غيره أصلاً ، بل هو ذام نفسه بنفسه ، ولاعن نفسه بنفسه ، وهو المرزوق المضروب المشتوم ، وهو الناكح والمنكوح ، والآكل والمأكول ، وقد صرّحوا بذلك تصريحاً بيّناً .

الرابع : أنّ عندهم أنّ اللّه هو الذى يركع ويسجد ويخضع ويعبد ويصوم ويجوع ويقوم وينام . وتصيبه الأمراض والأسقام ، وتبتليه الأعداء ، ويصيبه البلاء ، وتشتد به اللأواء ، وقد صرّحوا بذلك وصرّحوا بأنّ كل كرب يصيب النفوس فإنه هو الذى يصيبه . وأنه إذا نَفّس الكرب فإنما يتنفس عنه ، ولهذا كره بعض هؤلاء الذين هم من أكفر خلق اللّه وأعظمهم نفاقاً وإلحاداً وعتواً على اللّه وعناداً أن يصبر الإنسان على البلاء لأنّ عندهم هو المصاب المبتلى . وقد صرّحوا بأنه موصوف بكل نقص وعيب فإنه ما ثَمّ مَن يتصف بالنقائص والعيوب غيره . فكل عيب ونقص وكفر وفسوق فى العالَم فإنه هو المتصف به لا متصف به غيره . كلهم متفقون على هذا فى الوجود .

ثم صاحب « الفصوص » يقول : إنّ ذلك ثابت فى العدم ، وغيره يقول : ما ثَمّ سوى وجود الحق الذى هو متصف بهذه المعايب والمثالب .

• تحريف الفصوص القرآن بقصة نوح وموسى لتأييد المشركين :

الخامس : أن عندهم أنَّ الذين عبدوا اللَّات والعُزَّىٰ ومناة الثالثة الأخرىٰ والذين عبدوا وُداً وسواع ويغوث ويعوق ونَسراً . والذين عبدوا الشعرى والنجم والشمس والقمر ، والذين عبدوا المسيح وعزيراً والملائكة وسائر مَن عبد الأوثان والأصنام : قوم نوح وعاد وثمود وقوم فرعون وبنى إسرائيل وسائر المشركين والعرب - ما عبدوا إلا اللّه . ولا يُتصور أن يعبدوا غير اللّه ، وقد صرَّحوا بذلك فى مواضع كثيرة مثل قول صاحب « الفصوص فى « فص الكلمة النوحية » :

﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً كُبَّاراً ﴾ (١) : لأنَّ الدعوة إلى اللّه مكر بالمدعو ، لأنه ما عدم من البداية فيدعى إلى الغاية ، ﴿ أَدْعُواْ إِلَى اللّه ﴾ هنا عدة المكر ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ (٢) ففيه أنَّ الأمر له كله فأجابوه مكراً كما دعاهم ... إلى أن قال : فقالوا فى مكرهم : ﴿ لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾ (٣) ، فإنهم إذا تركوهم جهلوا من الحق على قدر ما تركوا من هؤلاء ، فإنَّ الحق فى كل معبود وجهاً خاصاً يعرفه مَن عرفه ويجهله مَن جهله فى المحمديين ، ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ (٤) أى حَكَم ، فالعالِم يعلم مَن عبد وفى أى صورة ظهر حتى عُبِد ، وأنَّ التفريق والكثرة كالأعضاء فى الصورة المحسوسة وكالقوى المعنوية فى الصورة الروحانية . فما عُبِدَ غير اللّه فى كل معبود . فالأدنى مَن تخيل فيه الألوهية . فلولا هذا التخيل ما عُبِدَ الحجر ولا غيره . ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ (٥) فلو سموهم لسموهم حجراً وشجراً وكوكباً . ولو قيل : مَن عبدتم ؟ لقالوا : إلهاً واحداً كما كانوا يقولون : « اللّه ولا الإلَه » ، وإلا على ما تخيل بل قال : هذا مجلى إلهى ينبغى تعظيمه فلا يقتصر . فالأدنى صاحب التخيل يقول : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللّهِ زُلْفَىٰ ﴾ (٦) والأعلى العالِم يقول :

---

(١) نوح : ٢٢ (٢) يوسف : ١٠٨ (٣) نوح : ٢٣
(٤) الإسراء : ٢٣ (٥) الرعد : ٣٣ (٦) الزمر : ٣

﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ﴾ [1] حيث ظهر ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ [2] الذين خبت نار طبيعتهم فقالوا : « إلهاً » ولم يقولوا : « طبيعة »

• زعمه أنَّ عبادة العجل والأصنام والهوى أعلى المعرفة :

وقال أيضاً فى « فص الهارونية » : « ثم قال هارون لموسى : ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [3] فتجعلنى سبباً فى تفريقهم ، فإنّ عبادة العجل فرّقت بينهم ، وكان فيهم مَن عبده اتباعاً للسامرى وتقليداً له ، ومنهم مَن توقف عن عبادته حتى يرجع موسى إليهم فيسألونه فى ذلك ، فخشى هارون أن يُنسب ذلك التفريق إليه ، فكان موسى أعلم بالأمر من هارون لأنه علم ما عبده أصحاب العجل ، لعلمه بأنّ الله قد قضى أن لا يُعبد إلا إياه ، وما حكم الله بشئ إلا وقع ، فكان عتب موسى أخاه هارون لما وقع الأمر فى إنكاره وعدم إتساعه ، فإنّ العارف مَن يرى الحق فى كل شئ ، بل يراه عين كل شئ ، فكان موسى يربى هارون تربية علم وإن كان أصغر منه فى السن ، ولذلك لما قال له هارون ما قال رجع إلى السامرى فقال : ﴿ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ [4] يعنى فيما صنعتُ من عدولك إلى صورة العجل على الاختصاص ... وساق الكلام إلى أن قال : فكان عدم قوة إرداع هارون بالفعل أن تنفذ فى أصحاب العجل بالتسليط على العجل كما سلط موسى عليه - حكمة من الله ظاهرة فى الوجود ليُعبد فى كل صورة ، وإن ذهبت تلك الصورة بعد ذلك فما ذهبت إلا بعد ما تلبست عند عابدها بالألوهية ، ولهذا ما بقى نوع من الأنواع إلا وعُبِد ، إما عبادة تأله ، وأما عبادة تسخير ، ولا بد من ذلك لمن عقل ، وما عُبِدَ شئ من العالَم إلا بعد التلبس بالرفعة عند العابد والظهور بالدرجة فى قلبه ، ولذلك تسمى الحق لنا بـ « رفيع الدرجات » ولم يقل « رفيع الدرجة » فكثُر الدرجات

---

(١) الحج : ٣٤ (٢) الحج : ٣٤

(٣) طه : ٩٤ (٤) طه : ٩٥

فى عين واحدة فإنه قضى أن لا يُعبد إلا إياه فى درجات له كثيرة مختلفة أعطت كل درجة مجلى إلٰهياً عُبد فيها ، وأعظم مجلى عُبِدَ فيه وأعلاه « الهوى » كما قال : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ (١) فهو أعظم معبود ، فإنه لا يُعبد شئ إلا به ، ولا يُعبد هو إلا بذاته . وفيه أقول :

وحق الهوى إنَّ الهوى سبب الهوى ولولا الهوى فى القلب ما عُبِدَ الهوى

● فلسفته وثرثرته فى تسمية الشرك معرفة :

« ألا ترى علم الله بالأشياء ما أكمله كيف تم فى حق مَن عبد هواه واتخذه إلهاً فقال : ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ (٢) والضلالة : الحيرة ، وذلك أنه لما رأى هذا العابد ما عبد إلا هواه بانقياده لطاعته فيما يأمر به من عبادة مَن عبده من الأشخاص ، حتى إنَّ عبادة الله كانت عن هوى أيضاً فإنه لو لم يقع له فى ذلك الجناب المقدس هوى - وهو الإرادة بمحبة - ما عبد الله ولا آثره على غيره ، وكذلك كل مَن عبد صورة من صور العالَم واتخذها إلهاً ما اتخذها إلا بالهوى ، فالعابد لا يزال تحت سلطان هواه ثم رأى المعبودات تتنوع فى العابدين ، وكل عابد أمراً ما يُكَفِّر مَن يعبد سواه ، والذى عنده أدنى تنبه لا يحار لاتحاد الهوى بل لأحدية الهوى كما ذكر ، فإنه عين واحدة فى كل عابد : ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ ﴾ أى حيَّره على علم بأنَّ كل عابد ما عبد إلا هواه ، ولا استعبده إلا هواه ، سواء صادف الأمر المشروع أو لم يصادف ، والعارف المكمل مَن رأى كل معبود مجلى للحق يُعبد فيه . ولذلك سموه كلهم إله مع اسمه الخاص : شجر أو حجر أو حيوان أو إنسان أو كوكب أو مَلَك ، هذا اسم الشخصية فيه والأُلوهية مرتبة تخيل العابد له أنها مرتبة معبوده ، وهى على الحقيقة مجلى الحق لبصر هذا العابد المعتكف على هذا المعبود فى هذا المجلى المختص بحجر ، ولهذا قال بعض مَن لم يعرف مقاله جهالة : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ (٣) مع

---

(١) الجاثية : ٢٣ (٢) الجاثية : ٢٣ (٣) الزمر : ٣

تسميتهم إياهم آلهة ، كما قالوا : ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلٰهاً وَاحِداً ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ (١) فما أنكروه بل تعجبوا من ذلك فإنهم وقفوا على كثرة الصور ونسبة الألوهية له ، فجاء الرسول ودعاهم إلى إله واحد يُعرف ، ولا يشهد أيضاً بشهادتهم أنهم أثبتوه عندهم واعتقدوه فى قولهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ (٢) لعلمهم بأنَّ تلك الصور حجارة ، ولذلك قامت الحُجَّة عليهم بقوله : ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ (٣) فما يسمونهم إلا بما يعلمون أنَّ تلك الأسماء لهم حقيقة - كحجر وخشب وكوكب وأمثالها - وأما العارفون بالأمر على ما هو عليه فيظهرون صورة الإنكار لما عُبِدَ من الصور لأنَّ مرتبتهم فى العلم تعطيهم أن يكونوا بحكم الوقت لحكم الرسول الذى آمنوا به عليهم الذى به سموا مؤمنين ، فهم عُبَّاد الوقت ، مع علمهم بأنهم ما عبدوا من تلك الصور أعيانها وإنما عبدوا اللّه فيها بحكم سلطان التجلى الذى عرفوه منهم ، وجهله المنكر الذى لا علم له بما يتجلى . وستره العارف المكمل من نبى أو رسول أو وارث عنهم ، فأمرهم بالانتزاح عن تلك الصور لما انتزح عنها رسول الوقت اتباعاً للرسول طمعاً فى محبة اللّه إياهم بقوله : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (٤) فدعا إلى إله يصمد إليه ويعل من حيث الجملة ولا يُشهد ولا تدركه الأبصار ، بل هو يدرك الأبصار للطفه وسريانه فى أعيان الأشياء ، فلا تدركه الأبصار كما أنها لا تدرك أرواحها المدبرة أشباحها ، وصورها الظاهرة ، فهو اللطيف الخبير ، والخبرة ذوق ، والذوق تجلى ، والتجلى فى الصور ، فلا بد منها ولا بد منه ، فلا بد أن يعبده مَن رآه بهواه . إن فهمت هذا » .. اهـ .

---

(١) سورة ص : ٥
(٢) الزمر : ٣
(٣) الرعد : ٣٣
(٤) آل عمران : ٣١

• رد الشيخ على إلحاد ابن عربى وشركه بأنه خلاف دين اللّه وسائر الأديان :

فتدبر حقيقة ما عليه هؤلاء فإنهم أجمعوا على كل شرك فى العالم وعدلوا باللّه كل مخلوق وجوّزوا أن يُعبد كل شئ ، ومع كونهم يعبدون كل شئ فيقولون : ما عبدنا إلا اللّه ، فاجتمع فى قولهم أمران : كل شرك ، وكل جحود وتعطيل مع ظنهم أنهم ما عبدوا إلا اللّه ، ومعلوم أنّ هذا خلاف دين المرسلين كلهم وخلاف دين أهل الكتاب كلهم ، والملل كلها ، بل وخلاف دين المشركين أيضاً ، وخلاف ما فَطَرَ اللّه عليه عباده مما يعقلونه بقلوبهم ويجدونه فى نفوسهم ، وهو فى غاية الفساد والتناقض والسفسطة والجحود لرب العالمين .

وذلك أنه عُلِمَ بالاضطرار أنّ الرسل كانوا يجعلون ما عبده المشركون غير اللّه ، ويجعلون عابده عابداً لغير اللّه مشركاً باللّه عادلاً به جاعلاً له نداً . فإنهم دعوا الخلق إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له . وهذا هو دين اللّه الذى أنزل به كتبه وأرسل به رسله ، وهو الإسلام العام الذى لا يقبل اللّه من الأولين والآخرين غيره ، ولا يغفر لمن تركه بعد بلاغ الرسالة كما قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ (١) وهو الفارق بين أهل الجنة وأهل النار والسعداء والأشقياء كما قال النبى ﷺ : « مَن كان آخر كلامه : لا إله إلا اللّه وجبت له الجنة » ، وقال : « مَن مات يعلم أنّ لا إله إلا اللّه وجبت له الجنة » ، وقال : « إنى لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجد لها روحاً وهى رأس الدين » ، وكما قال : « أُمِرتُ أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أنّ لا إله إلا اللّه وأنى رسول اللّه ، فإذا قالوها عصموا منى دمائهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على اللّه » .

---

(١) النساء : ٤٨

● تفنيد شركهم بآيات القرآن فى أخبار الرسل :

وفضائل هذه الكلمة وحقائقها وموقعها من الدين فوق مايصفه الواصفون ويعرفه العارفون ، وهى حقيقة الأمر كله كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (١) ، فأخبر سبحانه أنه يوحى إلى كل رسول بنفى الألوهية عما سواه وإثباتها له وحده . وزعم هؤلاء الملاحدة المشركون أنَّ كل شئ يستحق الألوهية كاستحقاق الله لها ، وقال تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ ؟ (٢) وزعم هؤلاء الملاحدة أنَّ كل شئ فإنه إله معبود ، فأخبر سبحانه أنه لم يجعل من دون الرحمن آلهة . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ ﴾ (٣) فأمر الله سبحانه بعبادته واجتناب الطاغوت . وعند هؤلاء : أنَّ الطواغيت جميعها فيها الله ، أو هى الله ، ومَن عبدها فما عبد إلا الله . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ ... الآيتين (٤) ، وأمر سبحانه بعبادة الرب الخالق لهذه الآيات . وعند هؤلاء الملاحدة الملاعين : هو عين هذه الآيات . ونهى سبحانه أن يجعل الناس له أنداداً ، وعندهم : هذا لا يُتصور فإنَّ الأنداد هى عينه ، فكيف يكون نداً لنفسه ؟ والذين عبدوا الأنداد فما عبدوا سواه .

● تصحيحهم لعبادة اللات والعُزَّى وغيرها وعبادة الشيطان :

ثم إنَّ هؤلاء الملاحدة احتجوا بتسمية المشركين لما عبدوه إلٰهاً كما قال : ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَٰهاً وَاحِداً ﴾ ؟ (٥) ، واعتقدوا أنهم لما سموهم آلهة كانت تسمية المشركين دليلاً على أنَّ إلٰهية الله لهم . وهذه الحُجَّة قد ردها الله على المشركين فى غير موضع كقوله سبحانه عن هود فى مخاطبته للمشركين من قومه :

---

(١) الأنبياء : ٢٥ (٢) الزخرف : ٤٥ (٣) النحل : ٣٦

(٤) البقرة : ٢١ (٥) سورة ص : ٥

﴿ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم ﴾ ... الآية [1] هذا رداً لقولهم : ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ [2] فأخبر رسول الله ﷺ أنَّ تسميتهم إياها آلهة ومعبودين تسمية ابتدعوها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من حُجَّة ولا سلطان ، والحكم ليس إلا لله وحده ، وقد أمر هو سبحانه أن لا يُعبد إلا إياه ، فكيف يحتج بقول مشركين لا حُجَّة لهم ؟ وقد أبطل الله قولهم ؟ وأمر الخلق أن لا يعبدوا إلا إياه دون هذه الأوثان التى سماها المشركون آلهة ، وعند الملاحدة عابدو الأوثان ما عبدوا إلا الله .

ثم إنَّ المشركين أنكروا على الرسول حيث جاءهم ليعبدوا الله وحده ويذروا ما كان يعبد آباؤهم ، فإذا كانوا هم ما زالوا يعبدون الله وحده كما تزعمه الملاحدة ، فلِمَ يدعو إلى ترك ما يعبده آباؤهم هو وغيره من الأنبياء ؟ وكذلك قال سبحانه فى سورة يوسف عنه : ﴿ يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [3] ، وقال سبحانه : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الهُدَىٰ ﴾ [4] ، وهذه الثلاثة المذكورة فى هذه السورة هى الأوثان العظام الكبار التى كان المشركون ينتابونها من أمصارهم ، فاللات كانت حذو قديد بالساحل لأهل المدينة ، والعُزَّى كانت قريبة من عرفات لأهل مكة ، ومناة كانت بالطائف لثقيف ، وهذه الثلاثة هى أمصار أرض الحجاز .

---

(١) الأعراف : ٧١ (٢) الأعراف : ٧٠

(٣) يوسف : ٣٩ - ٤٠ (٤) النجم : ١٩ - ٢٣

● فى توحيد خليل الرحمن وتنقيص ابن عربى له ولسائر الرسل :

أخبر سبحانه أنَّ الأسماء التى سماها المشركون أسماء ابتدعوها لا حقيقة لها ، فهم إنما يعبدون أسماء لا مسميات لها ، لأنه ليس فى المسمى من الألوهية ولا العزَّة ولا التقدير شئ ، ولم يُنزل الله سلطانا بهذه الأسماء ، إن يتبع المشركون إلا ظناً لا يُغنى من الحق شيئاً فى أنها آلهة تنفع وتضر ويتبعوا أهواء أنفسهم . وعند الملاحدة أنهم إذا عبدوا أهواءهم فقد عبدوا الله ، وقد قال سبحانه عن إمام الأئمة وخليل الرحمن وخير البرية بعد محمد ﷺ أنه قال لأبيه : ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْئاً * يَا أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ (١) فنهاه وأنكر عليه أن يعبد الأوثان التى لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى عنه شيئاً .

وعلى زعم هؤلاء الملحدين : فما عبدوا غير الله فى كل معبود ، فيكون الله هو الذى لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنه شيئاً ، وهو الذى نهاه عن عبادته ، وهو الذى أمره بعبادته . وهكذا قال أحذق طواغيتهم الفاجر التلمسانى فى قصيدة له :

يا عاذلى أنت تنهانى وتأمرنى ... والوجد أصدق نهَّاءً وأمَّارِ

فإن أطعك وأعص الوجد عذرنى ... عمى عن العيان إلى أوهام أخبارِ (٢)

وعين ما أنت تدعونى إليه إذا ... حققته تره المنهى يا جارى

وقد قال أيضاً إبراهيم لأبيه : ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً ﴾ (٣) ، وعندهم أنَّ الشيطان مجلى إلهى ينبغى تعظيمه

---

(١) مريم : ٤٢ - ٤٥ (٢) كذا فى الأصل وليحرر . (٣) مريم : ٤٤

ومَن عبده فما عبد غير الله ، وليس الشيطان غير الرحمن حتى نعصيه ، وقد قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَا تَعْبُدُواْ الشَّيْطَانَ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي ، هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) فنهاهم عن عبادة الشيطان وأمرهم بعبادة الله سبحانه ، وعندهم : عبادة الشيطان هي عبادته أيضاً ، فينبغي أن يُعبد الشيطان وجميع الموجودات فإنها عينه

وقال تعالى أيضاً عن إمام الخلائق خليل الرحمن أنه لما ﴿ رَأَى كَوْكَباً ، قَالَ هَذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ (٢) ، وقال أيضاً : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٥) ، وقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَانصُرُواْ آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (٦) .

---

(١) يس : ٦٠ - ٦٢ (٢) الأنعام : ٧٦ - ٨٢ (٣) الممتحنة : ٤

(٤) الزخرف : ٢٦ (٥) الشعراء : ٧٥ - ٩٨

(٦) الشعراء : ٧٠ - ٧١ ، أما ما بعد : « إلى قوله » فهو من سورة الأنبياء : ٦٨

• بيان كفر الاتحاديين بحُجَّة اللّه التى آتاها إبراهيم على قومه :

فهذا الخليل الذى جعله اللّه إمام الأئمة الذين يهتدون بأمره من الأنبياء والمرسلين بعده وسائر المؤمنين قال : ﴿ إِنَّنِى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً ﴾ (١) وعند الملاحدة : الذى أشركوه هو عين الحق ليس غيره ، فكيف يتبرأ من اللّه الذى وجَّهَ وجهه إليه ؟ وأحد الأمرين لازم على أصلهم ، إما أن يعبده فى كل شئ من المظاهر بدون تقيد ولا اختصاص وهو حال المكمل عندهم فلا يتبرأ من شئ ، وإما أن يعبده فى بعض المظاهر كفعل الناقصين عندهم .

وأما التبرىء من بعض الموجودات فقد قال : إنَّ قوم نوح لو تركوهم لتركوا من الحق بقدر ما تركوا من تلك الأوثان ، والرسل قد تبرأت من الأوثان فقد تركت الرسل من الحق شيئاً كثيراً وتبرؤا من اللّه الذى دعوا الخلق إليه ، والمشركون على زعمهم أحسن حالاً من المرسلين ، لأنَّ المشركين عبدوه فى بعض المظاهر ولم يتبرؤا من سائرها ، والرسل يتبرؤن منه فى عامة المظاهر .

ثم قول إبراهيم : ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ (٢) باطل على أصلهم ، فإنه لم يفطرها إذ هى ليست غيره ، فما أجدرهم بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ ... الآية (٣) .

ثم قول الخليل : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ ﴾ ... الآية (٤) وهذه حُجَّة اللّه التى آتاها إبراهيم على قومه بقوله : كَيفَ أخاف ما عبدتموه من دون اللّه ؟ وهى المخلوقات المعبودة من دونه ، وعندهم : ليست معبودة من دونه ، ومَن لم يقم بحقها فلم يخف اللّه ، والرسل لم يخافوا اللّه .

---

(١) الأنعام : ٧٨ - ٧٩ (٢) الأنعام : ٧٩

(٣) النساء : ٥١ (٤) الأنعام : ٨١

● جعلهم الشرك الذى لم ينزل به سلطاناً أكمل الإيمان :

وقول الخليل : ﴿ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً ﴾ (١) لم يصح عندهم فإنهم لم يشركوا باللّه شيئا إذ ليس ثَمَّ غيره حتى يشركوا به ، بل المعبود الذى عبدوه هو اللّه ، وأكثر ما فعلوه أنهم عبدوه فى بعض المظاهر وليس فى هذا أنهم جعلوا غيره شريكاً له فى العبادة

وقوله : ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ (٢) ورد فى الصحيحين عن عبد اللّه بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب النبى ﷺ وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال النبى ﷺ : « ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح : ﴿ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) » ؟ فقد أخبر اللّه ورسوله أنّ الشرك ظلم عظيم ، وأنّ الأمن هو لمن آمن باللّه ولم يخلط إيمانه بشرك ، وعلى زعم هؤلاء الملاحدة : فإيمان الذين خلطوا إيمانهم بشرك هو الإيمان الكامل التام ، وهو إيمان المحقق العارف عندهم ، لأن مَن آمن باللّه فى جميع مظاهره وعبده فى كل موجود هو أكمل ممن لم يؤمن بالأمر حيث لم يظهر ، ولم يعبده إلا من حيث لا يشهد ولا يعرف (٤) ، وعندهم : لا يُتصور أن يوجد إلا فى المخلوق ، فمَن لم يعبده فى شئ من المخلوقات أصلاً فما عبده فى الحقيقة، وإذا أطلقوا أنه عبده فهو لفظ لامعنى له ، أى إذا فسّروه فيكون بالتخصيص بمعنى أنه خصّص بعض المظاهر بالعبادة ، وهذا عندهم نقص لا من جهة ما أشركه وعبده ، وإنما هو من جهة ما تركه ، فليس عندهم فى الشرك ظلم ولا نقص إلا من جهة قلته ، وإلا فإذا كان الشرك عاماً كان أكمل وأفضل .

---

(١) الأنعام : ٨١ (٢) الأنعام : ٨٢ (٣) لقمان : ١٣

(٤) يعنون بهذا : الإيمان بالغيب الذى هو أساس دين اللّه فى القرآن وسائر الكتب الإلهية . وهذا عندهم أدنى وأنقص درجات الإيمان بل هو عندهم باطل ، إذ لا موجود عندهم غير هذه المظاهر ، فأكمل العبادة عبادتها أو عبادة ما سمى الإله فيها كلها وهو هى ، ودون ذلك عبادته فى بعضها كعبادة المسيح وغيره من البَشر وعبادة العجل والأصنام ، فكلما كثرت المعبودات كانت العبادة أكمل ، ولا يسمى هذا شركاً عندهم لأنّ هذه كلها وسائر الموجودات شىء واحد فى نفسه متعدد فى مظاهره .

وكذلك أيضا قول الخليل لقومه : ﴿ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [1] تبرأ عندهم من الحق الذى ظهر فيهم وفى آلهتهم ، وكذلك كفره به ومعاداته لهم كفر بالحق عندهم ومعاداة له .

- **تحريفهم لآية : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾ بحمل القضاء على التكوين القَدَرى :**

ثم قوله : ﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [2] كلام لا معنى له عندهم ، فإنهم كانوا مؤمنين بالله وحده ، إذ لا يُتصور عندهم غيره ، وإنما غايتهم أنهم عبدوه فى بعض المظاهر وتركوا بعضها من غير كفر به فيها ، وكذلك سائر ما قصَّه عن إبراهيم من معاداته لما عبده أولئك هو عندهم معاداة لله لأنه ما عبد غير الله كما زعم الملحدون محتجين بقوله : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [3] قالوا : وما قضى الله شيئاً إلا وقع . وهذا هو الإلحاد فى آيات الله ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، والكذب على الله ، فإنَّ « قَضَى » هنا ليست بمعنى القَدَر والتكوين بإجماع المسلمين بل وبإجماع العقلاء حتى يُقال ما قَدَّر الله شيئاً إلا وقع ، وإنما هى بمعنى أمر ، وما أمر الله به فقد يكون وقد لا يكون . فتدبر هذا التحريف ، وكذلك قوله : « ما حكم الله بشئ إلا وقع » كلام مجمل ، فإنَّ الحكم يكون بمعنى الأمر الدينى وهو الأحكام الشرعية كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ ، أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ ﴾ ... الآية [4] ، وقوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً ﴾ [5] ، وقوله : ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ، يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ [6] ، ويكون الحكم حكماً بالحق والتكوين والعقل كقوله : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِى أَبِى أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِى ﴾ [7] ، وقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ﴾ [8] .

---

(١) الممتحنة : ٤ (٢) الممتحنة : ٤ (٣) الإسراء : ٢٣
(٤) المائدة : ١ (٥) المائدة : ٥٠ (٦) الممتحنة : ١٠
(٧) يوسف : ٨٠ (٨) الأنبياء : ١١٢

ولهذا كان بعض السلف يقرأون : « ووصّى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه » ، وذكروا أنها كذلك فى بعض المصاحف ، ولهذا قال فى سياق الكلام : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ ... الآية [1] ، وساق أمره ووصياه إلى أن قال : ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِى جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً ﴾ [2] فختم الكلام بمثل ما فتحه به من أمره بالتوحيد ونهيه عن الشرك ليس هو إخباراً أنه ما عُبِدَ أحدٌ إلا الله وأنّ الله قدّر ذلك وكوّنه ، وكيف وقد قال : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ ﴾ ؟ وعندهم : ليس فى الوجود شئ يُجعل إلهاً آخر ، فأى شئ عُبِدَ فهو نفس الإله ليس آخر غيره .

ومثل معاداة إبراهيم والمؤمنين لله - على زعمهم - حيث عادى العابدين والمعبودين وما عبد غير الله ، وما عبد الله غير الله ، فهو عين كل عابد وعين كل معبود ، وقوله تعالى : ﴿ لا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ [3] ، وعلى زعمهم : ما لله عدو أصلاً ، وأنه ما ثَمَّ غير ولا سوى بحيث يُتصور أن يكون عدو نفسه أو عدو الذوات التى لا يظهر إلا بها .

● زعمهم أنَّ الدعوة إلى عبادة الله مكر بالعباد :

السادس : أنّ عندهم أنّ دعوة العباد إلى الله مكر بهم كما صرّح به حيث قال : « إنّ الدعوة إلى الله مكر بالمدعو فإنه ما عُدِمَ من البداية فيدعى إلى الغاية » .

وقال أيضاً صاحب الفصوص : « ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ [4] : الذين خبت نار طبيعتهم فقالوا : إلهاً ولم يقولوا : طبيعة ، ﴿ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيراً ﴾ [5] أى

---

(١) الإسراء : ٢٣ (٢) الإسراء : ٣٩ (٣) الممتحنة : ١

(٤) الحج : ٣٤ (٥) نوح : ٢٤

حيروهم فى تعداد الواحد بالوجوه والنَسب ، ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ ﴾ لأنفسهم المصطفين الذين أورثوا الكتاب فهم أول الثلاثة فقدَّمه على المقتصد والسابق ﴿ إِلَّا ضَلَالاً ﴾ (١) أى إلا حيرة . وفى المحمدى : زدنى فيك تحيراً ، ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ ﴾ (٢) له فالمحير له الدور ، والحركة الدورية حول القطب فلا تبرح منه ، وصاحب الطريق المستطيل مائل خارج عن المقصود طالب ما هو فيه ، صاحب خيال إليه غايته ، فله « من » و « إلى » وما بينهما ، وصاحب الحركة الدورية لا بدء له فيلزمه « من » ولا غاية فتحكم عليه « إلى » فله الوجود الأتم وهو المؤتى جوامع الكلم » ا هـ .

وقال بعض شعرائهم :

ما بال عينك لا يقر قرارها ... وإلام خطوك لاينى متنقلا

فلسوف تعلم أنَّ سيرك لم يكن ... إلا إليكَ إذا بلغتَ المنزلا

فعندهم : الإنسان هو غاية نفسه ، وهو معبود نفسه ، وليس وراءه شئ يعبده أو يقصده ، أو يدعوه أو يستجيب له ، ولهذا كان قولهم حقيقة قول فرعون .

وكنت أقول لمن أخاطبه : إنَّ قولهم هو حقيقة قول فرعون حتى حدثنى بعض مَن خاطبته فى ذلك من الثقات العارفين : أنَّ بعض كبرائهم لما دعا هذا المحدث إلى مذهبهم وكشف له حقيقة سرهم قال : فقلت له : هذا قول فرعون ، قال : نعم ، ونحن على قول فرعون ، فقلت له : والحمد للّه الذى اعترفوا بهذا ، فإنه مع إقرار الخصم لا يحتاج إلى بيِّنة .

* * *

(١) نوح : ٢٤ (٢) البقرة : ٢٠

• جعلهم متبِّع الصراط المستقيم صاحب خيال :

وقد جعل صاحب الطريق المستطيل صاحب خيال ، ومدح الحركة المستديرة الحائرة ، والقرآن يأمر بالصراط المستقيم ويمدحه ويثنى على أهله لا على المستدير . ففى أم الكتاب : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً ﴾ ... الآيتين (٣) . وقال تعالى فى موسى وهارون : ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٥) ، وقال عن إبليس : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم ﴾ ... الآية (٦) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلا فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧) ، وهؤلاء الملحدون من أكابر متبعيه ، وأنه قعد لهم على صراط الله المستقيم فصدَّهم عنه حتى كفروا بربهم ، وآمنوا أنَّ نفوسهم هى معبودهم وإلههم . وقال تعالى فى حق خاتم الرسل : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ ... الآية (٨) .

وأيضاً فإنَّ الله يقول : ﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ﴾ (٩) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ (١٠) ، وقال تعالى :

---

(١) الفاتحة : ٦ (٢) الأنعام : ١٥٣

(٣) أى أقرأ الآيتين بعد هذه إذ آخرهما : ﴿ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ (النساء : ٦٦ - ٦٨) .

(٤) الصافات : ١١٧ - ١١٨ (٥) الأنعام : ١٢٦ (٦) الأعراف : ١٦ - ١٧

(٧) سبأ : ٢٠ (٨) الشورى : ٥٢ - ٥٣ (٩) يونس : ٣٠

(١٠) الغاشية : ٢٥ - ٢٦

﴿ إلى اللّه مَرْجعُكُمْ جَميعاً ﴾ ... الآية [1] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإنسَانُ إنَّكَ كَادِحٌ إلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقيه ﴾ [2] ، وهؤلاء : عندهم ما ثَمَّ إلا أنت ، وأنت من الآن مردود إلى اللّه ، وما رأيتَ مردوداً إليه وليس هو شئ غيرك حتى ترد إليه أو ترجع إليه ، أو تكدح اليه أو تلاقيه .

- حال ابن الفارض والتلمسانى عند الموت ، وتصحيح ابن عربى لدعوى فرعون :

ولهذا حدثونا أنَّ ابن الفارض لما احتضر أنشد بيتين :

إن كان منزلتى فى الحب عندكمُ ما قد لقيتُ فقد ضيَّعتُ أيامـى

أمنيـــة ظفــرت نفسى بها زمناً واليوم أحسبها أضغاثُ أحـلامِ

وذلك أنه كان يتوهم أنه اللّه ، وأنه ما ثَمَّ مرد إليه ومرجع إليه غير ما كان عليه ، فلما جاءته ملائكة اللّه تنزع روحه من جسمه ، وبدا له من اللّه ما لم يكن يحستب ، تبيَّن له أنَّ ما كان عليه من أضغاث أحلام من الشيطان .

وكذلك حدَّثنى بعض أصحابنا عن بعض مَن أعرفه وله اتصال بهؤلاء عن الفاجر التلمسانى أنه وقت الموت تغيَّر واضطرب ، قال : دخلتُ عليه وقت الموت فوجدته يتأوه ، فقلت له : ممَّ تتأوه ؟ فقال : من خوف الفوت ، فقلت : سبحان اللّه ، ومثلك يخاف الفوت وأنت تدخل الفقير إلى الخلوة فتوصله إلى اللّه فى ثلاثة أيام ؟ فقال ما معناه : زال ذلك كله وما وجدتُ لذلك حقيقة .

الثامن [3] : أنَّ عندهم مَن يدَّعى الإلٰهية من البَشر كفرعون والدجال المنتظر ، أو أُدعيت فيه وهو من أولياء اللّه نبياً كالمسيح ، أو غير نبى كعلى ، أو ليس من أولياء اللّه كالحاكم [4] بمصر وغيرهم ، فإنه عند هؤلاء الملاحدة المنافقين

---

(١) المائدة : ٤٨ (٢) الانشقاق : ٦ (٣) لم يذكر السابع .

(٤) للتعريف بالحاكم انظر هامش ص ٣٠ من هذا الجزء .

يصحح هذه الدعوى ، وقد صرّح صاحب « الفصوص » أنّ هذه الدعوى كدعوى فرعون ، وهم كثيراً ما يعظّمون فرعون فإنه لم يتقدم لهم رأس فى الكفر مثله ، ولا يأتى متأخر لهم مثل الدجال الأعور الكذّاب ، وإذا نافقوا المؤمنين وأظهروا الإيمان قالوا : إنه مات مؤمناً وأنه لا يدخل النار ، وقالوا : ليس فى القرآن ما يدل على دخوله النار . وأما فى حقيقة أمرهم فما زال عندهم عارفاً باللّه ، بل هو اللّه ، وليس عندهم نار فيها ألم أصلاً كما سنذكره إن شاء اللّه عنهم ، ولكى يُتفطن بهذا لكون البدع مظان النفاق ، كما أن السُنَن شعائر الإيمان .

• تحريف ابن عربى آيات مراجعة فرعون لموسى واعترافه بربوبيته :

قال صاحب « الفصوص » فى فص « الحكمة التى فى الكلمة الموسوية » لما تكلّم على قوله : ﴿ وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ ؟ [1] : « وهنا سر كبير فإنه أجاب بالفعل لمن سأل عن الحد الذاتى فجعل الحد الذاتى عين إضافته إلى ما ظهر به من صور العالَم أو ما ظهر فيه من صور العالَم ، فكأنه قال له فى جواب قوله : ﴿ وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ ؟ قال : الذى يظهر فيه صور العالَمين من علو وهو السماء وسفل وهو الأرض ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [2] أو يظهر هو بها ، فلما قال فرعون لأصحابه : « إنه لمجنون » كما قلنا فى معنى كونه مجنوناً . أى لمستور عنه علم ما سألته عنه أو لا يُتصور أن يعلم أصلاً ، زاد موسى فى البيان ليعلم فرعون رتبته فى العلم الإلهى لعلمه بأنّ فرعون يعلم ذلك فقال : ﴿ رَبُّ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ ﴾ [3] فجاء بما يظهر ويستر وهو الظاهر والباطن ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [3] وهو قوله : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [4] . ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [5] أى إن كنتم أصحاب تقييد فإنّ العقل للتقييد .

---

(١) الشعراء : ٢٣ (٢) الشعراء : ٢٤ (٣) الشعراء : ٢٨
(٤) البقرة : ٢٩ (٥) الشعراء : ٢٨

« والجواب الأول جواب الموقنين وهم أهل الكشف والوجود ، فقال له : ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [1] أى أهل كشف ووجود فقد أعلمتكم ما تيقنتموه فى كشفكم ووجودكم ، فإن لم تكونوا من هذا الصنف فقد أجبتكم بالجواب الثانى إن كنتم أهل عقل وتقييد وحصرتم الحق فيما تعطيه أدلة عقولكم ، فظهر موسى بالوجهين ليعلم فرعون فضله وصدقه ، وعَلِمَ موسى أنَّ فرعون لكونه سأل عن ذلك من الماهية فعلم أنَّ سؤاله ليس على اصطلاح القدماء فى السؤال فلذلك أجاب ، فلو علم منه غير ذلك لخطأه فى السؤال ، فلما جعل موسى المسؤول عنه عين العالم خاطبه فرعون بهذا اللسان والقوم لا يشعرون فقال له : ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلٰهاً غَيْرِى لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [2] والسين من حروف الزَوائد ، أى لأسترنك فإنك أجبت بما أيدتنى به أنَ أقول مثل هذا القول ، فإن قلت لى بلسان الإشارة : فقد جهلت يا فرعون بوعيدك إياى والعين واحدة فكيف فرّقت ؟ فيقول فرعون : إنما فرّقت المراتب العين ما تفرقت العين ولا انقسمت فى ذاتها ، ومرتبتى الآن التحكم فيك يا موسى بالفعل ، وأنا أنت بالعين ، وأنا غيرك بالرتبة » - وساق الكلام إلى أن قال : « ولما كان فرعون فى منصب الحكم صاحب الوقت وأنه الخليفة بالسيف وإن جار فى العُرف الناموسى لذلك قال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾ [3] وإن كان الكل أرباباً بنسبة ما ، فأنا الأعلا منهم بما أعطيته فى الظاهر من التحكم فيكم ، ولما علمت السحرة صدقه فيما قال لهم لم ينكروه وأقرّوا له بذلك وقالوا له : ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ، إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [4] فالدولة لك فصحَ قوله : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾ ، وإنَ كان عين الحق فالصورة لفرعون فقطع الأيدى والأرجل وصلب بعين حق فى صورة باطل لنيل مراتب لا تُنال إلا بذلك الفعل ، فإنَّ الأسباب لا سبيل إلى تعطيلها لأنَّ الأعيان الثابتة اقتضتها ، فلا تظهر فى الوجود إلا بصورة ما هى عليه فى الثبوت ، إذ لا تبديل لكلمات الله ، وليست كلمة الله سوى أعيان الموجودات » .

* * *

(١) الشعراء : ٢٤ (٢) الشعراء : ٢٩
(٣) النازعات : ٢٤ (٤) طه : ٧٢

فصل

فى تحريفهم وزيادتهم فى حديث : « كان اللّه ولم يكن شئ قبله »

ومن أعظم الأصول التى يعتمدها هؤلاء الاتحادية الملاحدة ، المدعون للتحقيق والعرفان ، ما يأثرونه عن النبى ﷺ قال : « كان اللّه ولا شىء معه ، وهو الآن على ما عليه كان » وهذه الزيادة وهى قوله : « وهو الآن على ما عليه كان » كذب مفترى على رسول اللّه ﷺ اتفق أهل العلم بالحديث على أنه موضوع مختلق ، وليس هو فى شىء من دواوين الحديث ، لا كبارها ولا صغارها . ولا رواه أحد من أهل العلم بإسناد لا صحيح ولا ضعيف ، ولا بإسناد مجهول ، وإنما تكلم بهذه الكلمة بعض متأخرى متكلمة الجهمية . فتلقاه من هؤلاء الذين وصلوا إلى آخر التجهم وهو التعطيل والإلحاد ، ولكن أولئك قد يقولون : كان اللّه ولا مكان ولا زمان ، وهو الآن على ما عليه كان ، فقال هؤلاء : كان اللّه ولا شىء معه ، وهو الآن على ما عليه كان ، وقد عُرِف بأنّ هذا ليس من كلام النبى ﷺ أعلم هؤلاء بالإسلام ابن عربى فقال : « ما لا بد للمريد منه ، وكذلك جاء فى السُنّة : « كان اللّه ولا شىء معه » قال : وزاد العلماء : « وهو الآن على ما عليه كان » ، ولم يرجع إليه من خلقه العالم وصف لم يكن عليه ولا عالم موجود ، فاعتقد فيه من التنزيه مع وجود العالم ما يعتقده فيه ولا عالم ولا شىء سواه » .

• كلام الجهمية وأهل السُنّة فى حديث : « كان اللّه ... » إلخ:

وهذا الذى قاله هو قول كثير من أهل القِبلة . ولو ثبت على هذا لكان قوله من جنس قول غيره . لكنه متناقض ، ولهذا كان مقدم الاتحادية الفاجر التلمسانى يرد عليه فى مواضع يقرب فيها إلى المسلمين ، كما يرد عليه المسلمون المواضع التى خرج فيها إلى الاتحاد ، وإنما الحديث المأثور عن النبى ﷺ ما أخرجه البخارى ومسلم عن عمران بن حصين عن النبى ﷺ أنه قال : « كان اللّه ولم يكن شىء قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل

شيء ، ثم خلق السموات والأرض » ، وهذه الزيادة الإلحادية ، وهى قولهم : « وهو الآن على ما عليه كان » ، قصد بها المتكلمة المتجهمة نفى الصفات التى وصف بها نفسه من استوائه على العرش ونزوله إلى السماء الدنيا ، وغير ذلك فقالوا : كان فى الأزل ليس مستوياً على العرش ، وهو الآن على ما عليه كان ، فلا يكون على العرش لما يقتضى ذلك من التحول والتغير ، ويجيبهم أهل السُنَّة والإثبات بجوابين :

أحدهما : أنَّ المتجدد نسبة إضافية بينه وبين العرش بمنزلة المعية ويسميها ابن عقيل « الأحوال » ، وتجدد النسب والإضافات متفق عليه بين جميع أهل الأرض من المسلمين وغيرهم . إذ لا يقتضى ذلك تغيراً ولا استحالة .

والثانى : أنَّ ذلك وإن اقتضى تحولاً من حال إلى حال ، ومن شأن إلى شأن ، فهو مثل مجيئه وإتيانه ونزوله . وتكليمه لموسى وإتيانه يوم القيامة فى صورة ... ونحو ذلك مما دلت عليه النصوص . وقال به أكثر أهل السُنَّة فى الحديث . وكثير من أهل الكلام وهو لازم لسائر الفِرق . وقد ذكرنا نزاع الناس فى ذلك فى قاعدة الفرق بين الصفات والمخلوقات والصفات الفعلية ، وأما هؤلاء الجهمية الاتحادية فقالوا : « وهو الآن على ما عليه كان ، ليس معه غيره كما كان فى الأزل ولا شيء معه » ، قالوا : « إذ الكائنات ليست غيره ولا سواه ، فليس إلا هو ، فليس معه شيء آخر لا أزلاً ولا أبداً ، بل هو عين الموجودات ، ونفس الكائنات » ، وجعلوا المخلوقات المصنوعات هى نفس الخالق البارىء المصوِّر ، وهم دائماً يهذون بهذه الكلمة : « وهو الآن على ما عليه كان » وهى أجَلُّ عندهم من ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (١) ، ومن آية الكرسى ، لما فيها من الدلالة على الاتحاد الذى هو إلحادهم ، وهم يعتقدون أنها ثابتة عن النبى ﷺ وأنها من كلامه ومن أسرار معرفته ، وقد بيَّنا أنها كذب مختَلق ، ولم يروها

---

(١) الإخلاص : ١

أحد من أهل العلم ولا فى شىء من دواوين الحديث . بل اتفق العارفون بالحديث على أنها موضوعة ، ولا تُنقل هذه الزيادة عن إمام مشهور فى الأمة بالإمامة ، وإنما مخرجها ممن يُعرف بنوع من التجهم ، وتعطيل بعض الصفات ، ولفظ الحديث المعروف عند علماء الحديث الذى أخرجه أصحاب الصحيح : « كان اللّه ولا شىء معه ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شىء » وهذا إنما ينفى وجود المخلوقات من السموات والأرض . وما فيهما من الملائكة والإنس والجن . لا ينفى وجود العرش .

● حديث : « أول ما خلق اللّه القلم » ، وحديث : « كان فى عَمَاء » :

ولهذا ذهب كثير من السَلَف والخَلَف إلى أنَّ العرش متقدم على القلم واللوح ، مستدلين بهذا الحديث ، وحملوا قوله : « أول ما خلق اللّه القلم فقال له : اكتب ، فقال : وما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة » على هذا الخلق المذكور فى قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ (١) ، وهذا نظير حديث أبى رزين العقيلى المشهور فى كتب المسانيد والسُنَن أنه سأل النبى ﷺ فقال : يا رسول اللّه ، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ فقال : « كان فى عماء ، ما فوقه هواء وما تحته هواء » فالخلق المذكور فى هذا الحديث لم يدخل فيه الغمام ، وذكر بعضهم أنَّ هذا هو السحاب المذكور فى قوله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ ﴾ (٢) وفى ذلك آثار معروفة .

● بطلان زيادة : « وهو الآن على ما عليه كان » :

والدليل على أنَّ هذا الكلام - وهو قولهم : « وهو الآن على ما عليه كان » - كلام باطل مخالف للكتاب والسُنَّة والإجماع والاعتبار وجوه :

---

(١) هود : ٧ (٢) البقرة : ٢١٠

أحدها : أنَّ اللّه قد أخبر بأنه مع عباده فى غير موضع من الكتاب عموماً وخصوصا مثل قوله : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ (١)، وقوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ أَيْنَ مَا كَانُواْ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٤) فى موضعين ، وقوله : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ (٥) ، ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (٦) ، ﴿ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ﴾ (٧) ، ﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ (٨) ، وكان النبى ﷺ إذا سافر يقول : « اللّهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل ، اللّهم اصحبنا فى سفرنا واخلفنا فى أهلنا » .. فلو كان الخلق عموماً وخصوصاً ليسوا غيره ولا هم معه بل ما معه شىء آخر امتنع أن يكون هو مع نفسه وذاته ، فإنَّ المعية توجب شيئين كون أحدهما مع الآخر ، فكما أخبر اللّه أنه مع هؤلاء امتنع علم بطلان قولهم : « هو الآن على ما عليه كان » لا شىء معه . بل هو عين المخلوقات ، وأيضاً فإنَّ المعية لا تكون إلا من الطرفين ، فإنَّ معناها المقارنة والمصاحبة ، فإذا كان أحد الشيئين مع الآخر امتنع ألا يكون الآخر معه ، فمن الممتنع أن يكون اللّه مع خلقه ولا يكون لهم وجود معه ولا حقيقة أصلاً بل هم هو .

الوجه الثانى : أنَّ اللّه قال فى كتابه : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً ﴾ (٩) ، وقال تعالى : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ

---

(١) الحديد : ٤ (٢) المجادلة : ٧ (٣) النحل : ١٢٨

(٤) البقرة : ٢٤٩ (٥) طه : ٤٦ (٦) التوبة : ٤٠.

(٧) المائدة : ١٢ (٨) الشعراء : ٦٢ (٩) الإسراء : ٣٩

إلٰهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ، كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ ﴾ (٢) ، فنهاه أن يجعل أو يدعو معه إلهاً آخر ، ولم ينهه أن يثبت معه مخلوقاً ، أو يقول : إنَّ معه عبداً مملوكاً أو مربوباً فقيراً ، أو معه شيئاً موجوداً خلقه ، كما قال : ﴿ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (٣) ولم يقل : لا موجود إلا هو ، ولا هو إلا هو ، ولا شئ معه إلا هو ، بمعنى أنه نفس الموجودات وعينها . وهذا كما قال : ﴿ وَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ (٤) فأثبت وحدانيته فى الألوهية ولم يقل إنَّ الموجودات واحد ، فهذا التوحيد الذى فى كتاب اللّٰه هو توحيد الألوهية وهو أن لا تجعل معه ولا تدعو معه إلهاً غيره ، فأين هذا من أن يجعل نفس الوجود هو إياه ، وأيضاً فنهيه أن يجعل معه أو يدعو معه إلهاً آخر دليل على أنَّ ذلك ممكن كما فعله المشركون الذين دعوا مع اللّٰه آلهة أخرى .

فهذه النصوص تدل على أنَّ معه أشياء ليست بآلهة ، ولا يجوز أن تُجعل آلهة ولا تُدعى آلهة ، وأيضاً فعند الملحد يجوز أن يعبد كل شيء ويدعى كل شيء إذ لا يُتصور أن يعبد غيره فإنه هو الأشياء ، فيجوز للإنسان حينئذ أن يدعو كل شيء من الآلهة المعبودة من دون اللّٰه ، وهو عند الملحد ما دعا معه إلهاً آخر ، فجعل نفس ما حرَّمه اللّٰه وجعله شِركاً جعله توحيداً ، والشِرك عنده لا يُتصور بحال .

الوجه الثالث : أنَّ اللّٰه لما كان ولا شيء معه لم يكن معه سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ، ولا جن ولا إنس ولا ذوات ولا شجر ولا جنة ولا نار ولا جبال ولا بحار . فإن كان الآن على ما عليه كان ، فيجب أن لا يكون معه شيء من هذه الأعيان ، وهذا مكابرة للعيان ، وكفر بالقرآن والإيمان .

---

(١) الشعراء : ٢١٣ (٢) القصص : ٨٨

(٣) البقرة : ١٦٣ (٤) البقرة : ١٦٣

الوجه الرابع : أنَّ اللّه كان ولا شيء معه ثم كتب في الذكر كل شيء كما جاء في الحديث الصحيح ، فإن كان لا شيء معه فيما بعد فما الفرق بين حال الكتابة وقبلها ، وهو عين الكتابة واللوح عند الفراعنة الملاحدة ؟

* * *

فصل

في قولهم بإيمان فرعون وأنه لا يدخل النار وتحريفهم الآيات فيه

وزعمت طائفة من هؤلاء الاتحادية الذين ألحدوا في أسماء اللّه وآياته أنَّ فرعون كان مؤمناً وأنه لا يدخل النار ، وزعموا أنه ليس في القرآن ما يدل على عذابه بل فيه ما ينفيه كقوله : ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (١) قالوا : فإنما أدخل آله دونه ، وقوله : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ (٢) قالوا : إنما أوردهم ولم يدخلها ، قالوا : ولأنه قد آمن أنه لا إله إلّا الذي آمنت به بنو إسرائيل ، ووضع جبريل الطين في فمه لا يرد إيمان قلبه .

وهذا القول كفر معلوم فساده بالاضطرار من دين الإسلام لم يسبق ابن عربي إليه فيما أعلم أحد من أهل القبلة ولا من اليهود ولا من النصارى ، بل جميع أهل الملل مطبقون على كفر فرعون . فهذا عند الخاصة والعامة أبين من أن يُستَدل عليه بدليل ، فإنه لم يكفر أحد باللّه ويدعى لنفسه الربوبية والإلٰهية مثل فرعون ، ولهذا ثنّى اللّه قصته في القرآن في مواضع ، فإنَّ القصص هي أمثال مضروبة للدلالة على الإيمان ، وليس في الكفار أعظم من كفره ، والقرآن قد دلّ على كفره وعذابه في الآخرة في مواضع :

أحدها : قوله تعالى في القصص : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ من رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِه ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ (٣) فأخبر سبحانه

---

(١) غافر : ٤٦ (٢) هود : ٩٨ (٣) القصص : ٣٢ - ٤٢

الوجه الرابع : أنَّ اللّه كان ولا شيء معه ثم كتب في الذكر كل شيء كما جاء في الحديث الصحيح ، فإن كان لا شيء معه فيما بعد فما الفرق بين حال الكتابة وقبلها ، وهو عين الكتابة واللوح عند الفراعنة الملاحدة ؟

* * *

فصل

في قولهم بإيمان فرعون وأنه لا يدخل النار وتحريفهم الآيات فيه

وزعمت طائفة من هؤلاء الاتحادية الذين ألحدوا في أسماء اللّه وآياته أنَّ فرعون كان مؤمناً وأنه لا يدخل النار ، وزعموا أنه ليس في القرآن ما يدل على عذابه بل فيه ما ينفيه كقوله : ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (١) قالوا : فإنما أدخل آله دونه ، وقوله : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ (٢) قالوا : إنما أوردهم ولم يدخلها ، قالوا : ولأنه قد آمن أنه لا إله إلّا الذي آمنت به بنو إسرائيل ، ووضع جبريل الطين في فمه لا يرد إيمان قلبه .

وهذا القول كفر معلوم فساده بالاضطرار من دين الإسلام لم يسبق ابن عربي إليه فيما أعلم أحد من أهل القبلة ولا من اليهود ولا من النصارى ، بل جميع أهل الملل مطبقون على كفر فرعون . فهذا عند الخاصة والعامة أبين من أن يُستَدل عليه بدليل ، فإنه لم يكفر أحد باللّه ويدعى لنفسه الربوبية والإلٰهية مثل فرعون ، ولهذا ثنّى اللّه قصته في القرآن في مواضع ، فإنَّ القصص هي أمثال مضروبة للدلالة على الإيمان ، وليس في الكفار أعظم من كفره ، والقرآن قد دلّ على كفره وعذابه في الآخرة في مواضع :

أحدها : قوله تعالى في القصص : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ من رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِه ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ (٣) فأخبر سبحانه

---

(١) غافر : ٤٦ (٢) هود : ٩٨ (٣) القصص : ٣٢ - ٤٢

أنه أرسله إلى فرعون وقومه ، وأخبر أنهم كانوا قوماً فاسقين ، وأخبر أنهم : ﴿ قَالُواْ مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ (١) ، وأخبر أنَّ فرعون قال : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ (٢) ، وأنه أمر باتخاذ الصرح ليطلع إلى إلٰه موسى وأنه يظنه كاذباً ، وأخبر أنه استكبر فرعون وجنوده وظنوا أنهم لا يرجعون إلى اللّه . وأنه أخذ فرعون وجنوده فنبذهم فى اليَّم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ، وأنه جعلهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا يُنصرون ، وأنه أتبعهم فى الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين .

فهذا نص فى أنَّ فرعون من الفاسقين المكذِّبين لموسى ، الظالمين الداعين إلى النار ، الملعونين فى الدنيا بعد غرقهم ، المقبوحين فى الدار الآخرة . وهذا نص فى أنَّ فرعون بعد غرقه ملعون ، وهو فى الآخرة مقبوح غير منصور . وهذا إخبار عن غاية العذاب ، وهو موافق للموضع الثانى فى سورة المؤمن ، وهو قوله : ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (٣) ، وهذا إخبار عن فرعون وقومه أنه حاق بهم سوء العذاب فى البرزخ ، وأنهم فى القيامة يدخلون أشد العذاب ، وهذه الآية إحدى ما استدل به العلماء على عذاب البرزخ .

● النصوص فى أنَّ الرجل يدخل فى آله وأهل بيته وهو منهم :

وإنما دخلت الشُبهة على هؤلاء الجهال لما سمعوا : « آل فرعون » فظنوا أنَّ فرعون يخرج منهم . وهذا تحريف للكلم عن مواضعه ، بل فرعون داخل فى آل فرعون بلا نزاع بين أهل العلم والقرآن واللغة .. يتبين ذلك بوجوه :

أحدها : أنَّ لفظ : « آل فلان » يدخل فيها ذلك الشخص مثل قوله فى الملائكة الذين ضافوا إبراهيم : ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا امْرَأَتَهُ ﴾ (٤) ، ثم قال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ

---

(١) القصص : ٣٦ (٢) القصص : ٣٨

(٣) غافر : ٤٥ - ٤٦ (٤) الحجر : ٥٨ - ٦٠

الْمُرْسَلُونَ * قَالَ ﴾ - يعنى لوطاً - ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنكَرُونَ ﴾ (١) ، وكذلك قوله : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوط ، نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾ (٢) ، ثم قال بعد ذلك : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (٣) ، ومعلوم أنَّ لوطاً داخل فى « آل لوط » فى هذه المواضع ، وكذلك فرعون داخل فى « آل فرعون » المكذَّبين المأخوذين ، ومنه قول النبى ﷺ : « قولوا اللّهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليتَ على آل ابراهيم » ، وكذلك قوله : « كما باركت على آل إبراهيم » فإبراهيم داخل فى ذلك ، وكذلك قوله للحسن : « إنَّ الصدقة لا تحل لآل محمد » .

وفى الصحيح عن عبد اللّه بن أبى أوفى قال : كان القوم إذا أتوا رسول اللّه ﷺ بصدقة يُصلِّى عليهم ، فأتى أبى بصدقة فقال : « اللّهم صَلِّ على آل أبى أوفى » وأبو أوفى هو صاحب الصدقة .

ونظير هذا الاسم « أهل البيت » اسماً ، فالرجل يدخل فى أهل بيته كقول الملائكة : ﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ (٤) ، وقول النبى ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ (٥) ، وذلك لأن آل الرجل مَن يتولى أباه ونفسه ممن يؤول إليه ، وأهل بيته هم مَن يأهله وهو مَن يأهل أهل بيته .

فقد تبيَّن أنَّ الآية التى ظنوا أنها حُجَّة لهم هى حُجَّة عليهم فى تعذيب فرعون مع سائر آل فرعون فى البرزخ وفى القيامة ، ويبيِّن ذلك أنَّ الخطاب فى القصة كلها إخبار عن فرعون وقومه . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُواْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ ...

---

(١) الحجر : ٦١ - ٦٢ (٢) القمر : ٣٤ (٣) القمر : ٤١ - ٤٢

(٤) هود : ٧٣ (٥) الأحزاب : ٣٣

إلى قوله : ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ العِبَادِ ﴾ (١) ، فأخبر عقب قوله : ﴿ أَدْخِلُواْ آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ ﴾ (٢) عن محاجتهم في النار وقول الضعفاء للذين استكبروا وقول المستكبرين للضعفاء : ﴿ إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ . ومعلوم أنَّ فرعون هو رأس المستكبرين ، وهو الذي استخف قومه فأطاعوه ، ولم يستكبر أحد استكبار فرعون فهو أحق بهذا النعت والحكم من جميع قومه .

● بقية الآيات في كفر فرعون وعذابه مع آله وهو منهم :

الموضع الثاني : وهو حُجَّة عليهم لا لهم قوله : ﴿ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ، وَبِئْسَ الوِرْدُ المَوْرُودُ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ بِئْسَ الرِّفْدُ المَرْفُودُ ﴾ (٣) أخبر أنه يقدم قومه ولم يقل : « يسوقهم » ، وأنه أوردهم النار . ومعلوم أنَّ المتقدم إذا أورد المتأخر النار كان هو أول مَن يردها وإلا لم يكن قادماً بل كان سائقاً . يوضح ذلك أنه قال : ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ (٤) فعُلِمَ أنه وهم يردون النار ، وأنهم جميعاً ملعونون في الدنيا والآخرة . وما أخلق المحاج عن فرعون أن يكون بهذه المثابة فإنَّ المرء مع مَن أحب ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (٥) ، وأيضاً فقد قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ (٦) يقول : هلا آمن قوم فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس . وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، كَانُواْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ ﴾ ... إلى قوله: ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ (٧)

---

(١) غافر : ٢٣ - ٤٨ (٢) غافر : ٤٦ (٣) هود : ٩٧ - ٩٩
(٤) هود : ٦٠ (٥) الأنفال : ٧٣ (٦) يونس : ٩٨
(٧) غافر : ٨٢ - ٨٥

فأخبر عن الأمم المكذّبين للرسل أنهم آمنوا عند رؤية البأس ، وأنه لم يك ينفعهم إيمانهم حينئذ ، وأنّ هذه سُنّة الله الخالية فى عباده ، وهذا مطابق لما ذكره الله فى قوله لفرعون : ﴿ ءَالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١) فإنّ هذا الخطاب هو استفهام إنكار - أى الآن تؤمن وقد عصيتَ قبل ؟ فأنكر أن يكون هذا الإيمان نافعاً أو مقبولاً ، فمَن قال : إنه نافع مقبول فقد خالف نص القرآن وخالف سُنّة الله التى قد خلت فى عباده .

يبيّن ذلك أنه لو كان إيمانه حينئذ مقبولاً لدُفِعَ عنه العذاب كما دُفِعَ عن قوم يونس ، فإنهم لما قَبِلَ إيمانهم مُتّعوا إلى حين ، فإنّ الإغراق هو عذاب على كفره ، فإذا لم يك كافراً لم يستحق عذاباً . وقوله بعد هذا : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ (٢) فوجب أن يعتبر به مَن خلفه ، ولو كان إنما مات مؤمناً لم يكن المؤمن مما يُعتبر بإهلاكه وإغراقه . وأيضاً فإنّ النبى ﷺ لما أخبره ابن مسعود بقتل أبى جهل قال : « هذا فرعون هذه الأمة » فضرب النبى ﷺ المثل فى رأس الكفار المكذّبين له برأس الكفار المكذّبين لموسى . فهذا يبيّن أنه هو الغاية فى الكفر ، فكيف يكون قد مات مؤمناً ؟ ومعلوم أنّ مَن مات مؤمناً لا يجوز أن يوسم بالكفر ولا يوصف ، لأنّ الإسلام يهدم ما كان قبله ، وفى مسند أحمد وإسحاق وصحيح ابن أبى حاتم عن عوف بن مالك عن عبد الله ابن عمرو عن النبى ﷺ ؟ فى تارك الصلاة : « يأتى مع قارون وفرعون وهامان وأُبَىّ بن خلف » .

« هذا آخر ما وُجِدَ من هذه الرسالة »

* * *

(١) يونس : ٩١ (٢) يونس : ٩٢